القواسم المشتركة
في
دعوة الأنبياء والمرسلين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

تأليف
الأستاذ الدكتور
أحمد حسن سيد غنيم
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
وعضو اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة
والأساتذة المساعدين بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن رسل الله تعالى هم الدعاة إليه سبحانه، وقد اختارهم الله عز وجل لحمل دعوته وتبليغها إلى الناس لهدايتهم والأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(١)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢).

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون أصول دعوات الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين واحدة مع كثرة عددهم واختلاف أمكنتهم وأزمنتهم.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦٥.

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٤.

(٣) سورة الشورى آية رقم ١٣.

وقال رسول الله ﷺ: (الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[1].

فكلهم بلا استثناء دعواْ أقوامهم ومَن أرسِلواْ إليهم إلى الإيمان بالله وحده، وإفراده بالعبادة على النحو الذي شرعه سبحانه وتعالى لهم، وإلى الإيمان بيوم البعث والنشور وما فيه من حساب وجزاء، والاعتقاد بوجود حياة بعد هذه الحياة يكرم فيها الأبرار، ويهان فيها الفجار، كما دعوهم كذلك إلى الإيمان بالرسل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين –دون تفرقة بينهم، وإلى الإيمان بالملائكة الكرام، وذلك لأنه أصل للإيمان بالوحي والنبوة، فمن أنكرها أنكر كل ذلك، كذلك دعوهم إلى الإيمان باليوم الآخر، وبالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله جميعاً – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وإلى الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره، وإلى أداء العبادات التي افترضها الله تعالى عليهم، وإلى التحلي بمكارم الأخلاق التي تؤهل الإنسان لرضا الخالق جلّ وعلاَ.

هذا.. وإننا في هذه الدراسة –إن شاء الله تعالى– سنلقي الضوء على القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية لتكون نبراساً للدعاة إلى الله عز وجل يُفيدون منه في طريق الدعوة إليه سبحانه وتعالى.

وتشتمل هذه الدراسة على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

أما المقدمة: ففيها بيان للموضوع وأهميته وخطة البحث.

أما المبحث الأول فهو بعنوان: الإسلام دعوة جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما المبحث الثاني فهو بعنوان: الأدلة على اتحاد أصول الرسالات الإلهية.

---

(١) متفق عليه. واللفظ لمسلم، انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ صـ١١٩. كتاب فضائل الأنبياء، باب فضل عيسى عليه السلام، ومعنى العلات: هم الأخوة لأب من أمهات شتى.

وأما المبحث الثالث فهو بعنوان: القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب العقيدة.

ويشتمل على ما يلي:

المطلب الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله (التوحيد).

المطلب الثاني: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثالث: الدعوة إلى الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

المطلب الرابع: الدعوة إلى الإيمان بالملائكة.

المطلب الخامس: الدعوة إلى الإيمان بالكتب السماوية.

المطلب السادس: الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر.

وأما المبحث الرابع فهو بعنوان: القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب العبادات.

وأما المبحث الخامس فهو بعنوان: القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب الأخلاق.

وأما المبحث السادس فهو بعنوان: تنوع الشرائع السماوية واختلافها في الرسالات الإلهية.

وأما الخاتمة: فقد اشتملت على أهم النتائج المستخلصة من البحث.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه سبحانه سميع مجيب الدعاء. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المبحث الأول

الإسلام دعوة جميع الأنبياء والمرسلين
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

يحسن بنا قبل الحديث عن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أن نُبين أن الإسلام هو دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فكلهم بلا استثناء دعوا أقوامهم إلى الاستسلام لله وحده لا شريك له، والانقياد له سبحانه وإخلاص العبادة له جل وعلا.

ويتضح لنا ذلك إذا علمنا أن كلمة الإسلام تطلق في اللغة على الطاعة والانقياد والإذعان.

يقول صاحب القاموس المحيط [1]: وأسلم انقاد وصار مسلماً، والإسلام مصدر وهو يأتي بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى، يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، ويقال أسلم وسلم بالتحريك بمعنى الخالص من الشيء.

وإننا إذا تتبعنا كلمة الإسلام في لغة القرآن الكريم فإننا نجدها لا تقتصر على انقياد العقلاء من الخلق لأمر الله ونهيه فقط وإنما تتسع لتشمل إسلام الكون كله، سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونجومه وكواكبه، ومائه وشجره، وزروعه وثمره، إنسانه وحيوانه، وكل ما خلق الله من شيئ، فجميع هذه العوالم خاضعة لمشيئته تعالى مسخرة بأمره، منقادة لحكمه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2]، ثم اختص بهذه الكلمة من أسلم

---

(١) القاموس المحيط. جـ ١ صـ ١٣١، ١٣٢. طبعة الحلبي، وانظر مختار الصحاح، مادة (سلم).

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٨٣.

وجهه لله طوعاً فكأن المسلم هو الذي رضي بطاعة الله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة [١].

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وعلى هذا فالإسلام بهذا المعنى هو الدين الذي جاء به الرسل جميعا بداية من آدم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهو يتلاءم مع البشرية على مر القرون. واختلاف البيئات جيلاً بعد جيل، وينقذهم من ظلمات الجهل وعبث الأهواء، وإضلال المطامع والشهوات.

فنوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣].

وإبراهيم عليه السلام حمل رسالة الإسلام من بعد نوح، قال تعالى:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤].

وإسماعيل – عليه السلام – حمل رسالة الإسلام، وبنى مع أبيه البيت واتجها إلى الله عزّ وجل قائلين: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

(١) أنظر الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، صـ ٤٧، ٤٨، الشيخ محمد الراوي.
(٢) سورة الروم. آية رقم ٣٠.
(٣) سورة يونس. الآيتان رقم ٧١، ٧٢.
(٤) سورة البقرة. الآية رقم ١٣١.

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(١).

ولوط عليه السلام آمن بما آمن به إبراهيم – عليه السلام – وكان بيته هو البيت المسلم. قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وإسحاق ويعقوب والأسباط – عليهم السلام – مسلمون، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٣).

ويوسف – عليه السلام – كان مسلماً، ويدعواْ ربه أن يميته على الإسلام. فيقول: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٤).

وموسى – عليه السلام – كان يدعواْ قومه إلى الإسلام ويقول: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾(٥).

وفي معرض الحديث عن التوراة يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً

(١) سورة البقرة. الآيتان رقم ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سورة الذاريات. الآيتان رقم ٣٥ ، ٣٦.
(٣) سورة البقرة.الآيتان رقم ١٣٢، ١٣٣.
(٤) سورة يوسف. الآية رقم ١٠١.
(٥) سورة يونس. الآية رقم ٨٤.

قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

وعن سحرة فرعون وقد آمنوا بالله رب العالمين جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٢).

وداود وسليمان كانا يدعوان إلى الإسلام، ففي الكتاب الذي بعث به سليمان – عليه السلام – إلى القوم الذين كانواْ يعبدون الشمس من دون الله جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٣).

وعن ملكة سبأ وقد آمنت بالله رب العالمين جاء قوله سبحانه: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤).

وعيسى – عليه السلام – كان يدعواْ إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٥).

ومحمد ﷺ كان أول المسلمين في الوقت الذي كلف فيه بحمل الرسالة، ونطق بما نطق به من قبله من الرسل – عليهم السلام – وقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٦).

هذا.. ومما يؤكد لنا أن الأنبياء جميعاً جاءوا بدين واحد هو الإسلام هو أن كل رسول منهم كان يأتي فيصدق الرسول الذي سبقه، ويبين لقومه أنه حلقة في سلسلة الهداية الإلهية، فهذا يوسف عليه السلام يقول لصاحبيه في السجن: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ

(١) سورة المائدة. الآية رقم ٤٤.
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم ١٢٦.
(٣) سورة النمل. الآيتان رقم ٣٠،٣١.
(٤) سورة النمل. الآية رقم ٤٤.
(٥) سورة المائدة. الآية رقم ١١١.
(٦) سورة النمل. الآية رقم ٩١.

وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾(١).

وهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾(٢).

ويبين القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة وممهداً لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(٣).

ويبين المولى جل جلاله أن القرآن الكريم وهو خاتم الكتب المنزلة جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً عليها فيقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٤).

وهكذا. يتبين لنا أن الأنبياء جميعاً ما جاؤواْ إلاّ بدين واحد هو الإسلام لله رب العالمين قال تعالى:﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(٥).

---

(١) سورة يوسف. الآيتان رقم ٣٧، ٣٨.

(٢) سورة غافر. الآية رقم ٣٤.

(٣) سورة الصف. الآية رقم ٦.

(٤) سورة الصف. الآية رقم ٦.

(٥) سورة المائدة.الآية رقم ٤٨.

فهذه الآية توضح أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده وأنه الذي ابتعث به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأنه الحقيقة الخالدة التي رعاها كل الأنبياء ودعواْ أممهم إليها. وما طرأ بعد ذلك من مسميات، أو تحريفات فهو من عمل الأتباع المنحرفين.

ولقد أنكر القرآن الكريم على اللذين انحرفواْ بتعاليم أنبيائهم وصادر ما نسبوه إليهم زوراً وبهتاناً. فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾(٣).

إن الإسلام دعوة كل الرسل تجددت كاملة واضحة على يد محمد ﷺ الذي جاء بانياً على قواعد من سبقه من الأنبياء، وملتحماً مع أهدافهم وأصولهم، وكأنه بذلك يقول لأتباع موسى – عليه السلام – إن كنتم تريدون الحق الذي جاء به نبيكم فها هو ذا في صورته النقية الصافية.

(١) سورة آل عمران. الآية رقم ٦٧.

(٢) سورة التوبة. الآية رقم ٣٠.

(٣) سورة المائدة. الآيتان رقم ١١٦، ١١٧.

ولأتباع عيسى – عليه السلام –: إن كنتم تحبون رسولكم فهذا دينه غير مشوب ولا مخلوط إنه يقول للإنسانية جمعاء: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم قال: فغضب، وقال أمتهوكون[2]. فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لاتسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني[3].

كذلك لو كان عيسى حياً ما وسعه إلاّ اتباعه صلى الله عليه وسلم، ويطّرد الحكم مع سائر الأنبياء والمرسلين، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودياً أو نصرانياً ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به إلاّ كان من أصحاب النار) [4]

وهذا يدل دلالة واضحة على عالمية الدعوة الإسلامية، وأنها تعم المعاصرين لنزول القرآن الكريم ومن سيأتي بعدهم إلى يوم القيامة، بل إنها تشمل الجن مع الإنس باتفاق جمهور العلماء.

هذا .. وإن تأكيد هذه العالمية من الأمور الهامة في العصر الحديث. لأن أعداء الدعوة يريدون إثبات أن الإسلام خاص بالعرب. وبذلك يثبتون أنه دين جنس معين

---

(١) سورة الأنعام. آية رقم ١٥٣.

(٢) أي: أمتحيرون أنتم في الإسلام حتى تأخذوه من اليهود ؟ أو أمترددون ؟، انظر لسان العرب ج٦/ صـ٤٧٢١.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

كاليهودية، ويذكرون أن الاتجاه به إلى غير العرب خروج على طبيعة الإسلام ذاته، ويتصورون أنهم بهذه الأباطيل سيقفون ضد المد الإسلامي في أقاليم العالم المختلفة.

وأعداء الدعوة الإسلامية لا يقفون عند حد المنازعة الفكرية. بل إنهم لعجزهم يباشرون النزاع المسلح، ويحاولون إبادة المسلمين من غير العرب، كما هو حادث في كثير من بلدان العالم. ومع كل هذه المحاولات فإنهم سوف يبوؤون بالفشل، وسوف ترتد سائر موجات الإلحاد والتنصير على أعقابها خاسرة مدحورة، وسوف تبقى في النهاية الحقيقة المجردة الناطقة بعالمية الدعوة الإسلامية.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١).

هذا.. ولا يتعارض إطلاق الإسلام على الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله مع الإطلاق الخاص الذي صار علماً على دعوة سيدنا محمد ﷺ، لأنه إذا كان مفهوم الإسلام في معناه العام هو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين من عند رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فإنه يعني في مفهومه الخاص النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة، ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ من ربه وأمره بتبليغها إلى الناس، وما يترتب على اتباعها أو مخالفتها من ثواب أو عقاب، أو هو كما يقول الشيخ محمد عبده: الدين الذي جاء به محمد ﷺ، وعقله من وعاه من صحابته، ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينٌ من الزمان بينهم بلا خلاف، ولا اعتساف في التأويل، ولا ميل مع الشيع.

ومن الآيات القرآنية التي تشير إلى أن الإسلام صار علماً على الدين الخاتم الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله سبحانه وتعالى، والذي لا يقبل الله من أحد غيره

(١) سورة التوبة. آية رقم ٣٢.

قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢).

والذي يدل على أن الإسلام في هذه الآية مراد به شريعة محمد ﷺ السياق، فإنها جاءت في معرض الاحتجاج على أهل الكتاب ورد شبههم، كما أنها في معرض الرد على المعاندين والمرتدين بدليل أن بعد هذه الآية جاء قوله سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

اعتراض وجوابه:

وقد يقول قائل إذا كان الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين فلماذا تعددت الأديان ولماذا جاء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء الذين قصهم الله علينا والذين لم يقصصهم علينا ؟

وللإجابة على هذا الاعتراض نقول:

إن التعدد إنما كان في الرسالات والشرائع وليس في الأديان والعقائد، إذ ليس من السهل الميسور أن يرسل الله للبشرية في أطوارها الأولى رسولاً واحداً ثم يكتفى به فلا يرسل غيره لأن في هذا مناقضة لسنة التدرج التي سلكها الله سبحانه مع خلقه في إنزال الشرائع وتعاقب الأحكام، ثم إن تعدد الرسالات قبل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان أمراً ضرورياً اقتضته طبيعة الحياة لتعذر الاتصال السريع

(١) سورة المائدة. آية رقم ٣.
(٢) سورة آل عمران. آية رقم ٨٥.
(٣) سورة آل عمران. آية رقم ٨٦.

بين الأماكن المختلفة فقد يكون رسول ما في مكان ما ويرسل الله في نفس الزمن رسولاً آخر في جهة أخرى كما كان الحال في إرسال نبي الله لوط في زمن الخليل إبراهيم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١).

وكذلك فإن البشرية لم تكن مؤهلة في مراحلها الأولى لاستقبال الرسالة العالمية فكان من المناسب التدرج كما سبقت الإشارة حتى تنضج الإنسانية وتستكمل كل مؤهلاتها العقلية والمادية فتكون مستعدة حينئذ لتلقي الرسالة العالمية الخاتمة التي تحتوي على سائر العناصر اللازمة للتطور والتقدم، ونستطيع أن نشبه ذلك كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: بطفل جاءه ثلاثة أطباء في مراحل حياته المختلفة، جاءه الأول في الطور الأول من حياته فقرر قصر غذائه على اللبن، وجاءه الثاني في المرحلة التالية فقرر له طعاماً ليناً وطعاماً مشوياً خفيفاً، وجاءه الثالث في المرحلة التي بعدها فأذن له بغذاء قوي كامل.

لا ريب أن هاهنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم بأن صاحباً كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها لا تختلف باختلاف الأزمان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهولة الناضجين(٢).

فهذا هو شأن الرسالات والشرائع السماوية جاءت مع تعددها متضامنة متكاملة لا تضارب في أصولها ولا اختلاف في أهدافها، وما ذلك إلا لأنها جاءت من عند اله واحد هو الله سبحانه وتعالى، الذي بعث أنبياءه بدين واحد هو الإسلام، ومن ثم رأينا حكمة الله تتجلى في تخليص الرسالة الخاتمة من الأسماء المحدودة بالزمان والمكان والأشخاص والقبائل ليكون لها اسم علم مميز هو الإسلام، حتى لا تبقى شبهة لأحد أن يقول إن هذه الرسالة قاصرة على جنس معين أو شعب معين أو

(١) سورة فاطر. آية رقم ٢٤.

(٢) الدين، صـ ١٨٦، طبعة السعادة.

مكان معين أو زمان معين، وإنما هي للناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وتباين أماكنهم وأزمانهم لأنه إسلام الوجه لله رب العامين، ولذلك انتظم في سلكه جميع الأمم فصارت أمة واحدة موحدة لإله واحد(١)، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾(٢).

وقد جاءت هذه الآية في نهاية الاستعراض الذي شمل نماذج من الرسل ونماذج من الابتلاء ونماذج من رحمة الله تعقب بالغرض الشامل من هذا الاستعراض: إن هذه أمتكم – أمة الأنبياء – أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتنهج نهجاً واحداً هو الاتجاه إلى الله وحده دون سواه.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁

(١) مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط العدد التاسع، صـ ٢٨٨.
(٢) سورة الأنبياء. الآية رقم ٩٢.

المبحث الثاني

الأدلة على اتحاد أصول الرسالات الإلهية

إن من يستقرأ دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يجد أنها متفقة في الأصول والمبادئ العامة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وإن اختلفت كل رسالة عن سابقتها في الفروع التي يحتاج إليها الناس مع تغير الأزمان واختلاف الأحوال، ولهذا رأينا الرسالات السماوية يصدق بعضها بعضاً، وتكمل اللاحقة منها السابقة وتمهد للرسالة الآتية بعدها، وما كان ذلك إلا لأنها جميعاً من عند الله سبحانه وتعالى، وتهدف إلى غاية واحدة، هي الدعوة إلى الإسلام، وما أروع تصوير الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا المعنى في الحديث الشريف إذ يقول: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله إلاّ موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون حوله ويعجبون ويقولون: هلا وضعت اللبنة فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين" (١).

وفيما يلي نذكر الأدلة على ذلك:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(٢).

إن المتأمل في هذه الآية القرآنية يجد أنها تقرر وحدة الوحي، وحدة مصدره، فالموحي هو الله العزيز الحكيم، والموحى إليهم هم الرسل الكرام على مدار الزمان، والوحي واحد في جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان ﴿ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة الشورى. آية رقم ٣.

إنها قصة بعيدة البداية ضاربة في أضواء الزمان، وسلسة كثيرة الحلقات متشابكة، ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع.

وهذه الحقيقة – على هذا النحو – حين تستقر في ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ووحدة مصدره وطريقه، وتشدهم إلى مصدر هذا الوحي ﴿اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحي في كل زمان ومكان فهذه أسرتهم تضرب في بطون التاريخ، وتمتد جذورها في شعاب الزمن وتتصل كلها بالله في النهاية، فيلتقون فيه جميعاً، وهو(العَزِيزُ)القوي القادر (الحَكِيمُ) الذي يوحي لمن يشاء وفق حكمة وتدبير، فأنى يُصرفون عن هذا المنهج الإلهي الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التي لا تؤدي إلى الله، ولايعرف لها مصدر، ولاتستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟!.

يقول الأستاذ المراغي في تفسير قوله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ أي: بمثل ما في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد والنبوة والإيمان باليوم الآخر، وتجميل النفس بفاضل الأخلاق وإبعادها عن رذائل الخلال، والعمل على سعادة المرء والمجتمع، (يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ العَزِيزُ) في ملكه، الغالب بقهره، الحكيم بصنعه، المصيب في قوله وفعله، كما أوحى إلى الأنبياء بمثله من قبلك[1].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا

(١) تفسير المراغي. جـ٢٥ / صـ١٤.

الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوَهُمْ إِلَيْـهِ اللَّـهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

أي: شرع لكم من الدين ما شرع لنوح ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل، وأمرهم به أمراً مؤكداً، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لعلواْ شأنهم وعظيم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفار إلى اتباعه، لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم، واختصاص اليهود بموسى – عليه السلام –، والنصارى بعيسى – عليه السلام –، وإلاّ فكل نبي مأمور بما أُمرواْ به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد، وأصول الشرائع والأحكام مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة، واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات.

وفي الآية إيماء إلى أن ما شرعه لهم صادر عن كامل العلم والحكمة، وأنه دين قديم أجمع عليه الرسل، وما أوحاه إليه هو إماّ ما ذكر في صدر السورة [2] في قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا﴾..الآية.

وإماّ ما يعمهما وغيرهما فيما وقع في سائر المواضع التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[3].

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[4]، ثم فصل ما شرعه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

أي: اجعلواْ هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص، لله قائماً دائماً مستمرا، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب ولا تتفرقواْ فيه، بأن تأتواْ ببعض

(١) سورة الشورى. آية رقم ١٣.
(٢) أي في صدر سورة الشورى.
(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٣.
(٤) سورة الكهف آية رقم ١١٠.

وتتركواْ بعضاً، أو بأن يأتي بعض منكم بهذه الأصول التي شرعت لكم ويتركها بعض آخر.

والنهي إنما هو عن التفرق في أصول الشرائع، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(١).

والخلاصة.. إننا شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء قبلكم، ديناً واحداً في الأصول وهي: التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب بصالح الأعمال – كالصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم –، وحرمنا عليكم – الزنا، وإيذاء الخلق، والاعتداء على الحيوان،..– فكل هذا قد اتحد فيه الرسل وإن اختلفواْ في تفاصيله(٢).

ويقول الإمام القرطبي في معنى هذه الآية أيضاَ (٣):

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ أي: شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ثم بين ذلك بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون بإقامته مسلما ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متفاوتة قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾.

ثم يقول: قال القاضي أبو بكر بن العربي ثبت في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الشفاعة الكبير المشهور: (ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقولون له أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض).

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٨.

(٢) تفسير المراغي. جـ٢٥ / صـ٢٤، ٢٥.

(٣)الجامع لأحكام القرآن. جـ١٦ / صـ ١١.

وهذا صحيح لا إشكال فيه كما أن آدم أول نبي بغير إشكال لأن آدم لم يكن معه إلا نبوة ولم تفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم وإنما كان تنبيها على بعض الأمور واقتصارا على ضروريات المعاش وأخذاً بوظائف الحياة والبقاء واستقر المدى إلى نوح فبعثه الله بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ووظف عليه الواجبات وأوضح له الآداب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء صلوات الله عليهم واحدا بعد واحد وشريعة إثر شريعة حتى ختمها الله بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان المعنى أوصيناك يا محمد ونوحا دينا واحدا يعنى في الأصول التي لا تختلف فيه الشريعة وهي التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب إلى الله بصالح الأعمال والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنى والأذية للخلق كيفما تصرفت والاعتداء على الحيوان كيفما دار واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء وإن اختلفت أعدادهم وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

أي: اجعلوه قائما يريد دائما مستمرا محفوظا مستقرا لا خلاف فيه ولا اضطراب فمن الخلق من وفى ومنهم من نكث فمن نكث فإنما ينكث على نفسه واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم.. والله أعلم.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾(١).

قال القرطبي: أي ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلاّ ما قد أوحي إلى من قبلك، ولا خلاف بين الشرائع فيما يتعلق بالتوحيد، وهو كقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٢).

(١) سسورة فصلت. آية رقم ٤٣.

(٢) سورة الزمر. آية رقم ٦٥.

أي: لم تدعهم إلاّ إلى ما تدعواْ إليه جميع الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك [1].

وقال الشيخ المراغي: أي ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة لله إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك وإن اختلفت في غير هذا تبعاً للزمان والمكان.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً* رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2].

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان، وداود، وموسى..... وغيرهم ممن قصصهم الله على نبيه محمدﷺ. خاتم الأنبياء. كلهم تلقى الوحي من الله تعالى، فما جاء بشيء من عند نفسه.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[3].

والمعنى: أن الأصول التي جاءت في هذه الشريعة الخاتمة هي بعينها التي جاءت في الشرائع السماوية السابقة، فما أوحى به الله تعالى إلى نبيه ﷺ من أمر

(١) الجامع لأحكام القرآن، الإمام/ القرطبي، جـ١٥ / صـ٣٦٧، ٣٦٨.
(٢) سورة النساء. الآيات رقم: ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥.
(٣) سورة الأعلى. آية رقم: ١٨، ١٩.

ونهي، ووعد ووعيد هو بعينه ما جاء في صحف إبراهيم وموسى. فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره، وتتعد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنواْ بإبراهيم أو بموسى عليهما السلام، فعليهم أن يؤمنواْ بمحمد ﷺ لأنه لم يأت إلاّ بما جاء في صحفهم، وإنما هو ﷺ مُذكر أو محيي لما مات من شرائعهم.

وقصارى القول.. أن الرسول ﷺ ما جاء إلاّ مذكراً بما نسيته الأجيال من شرائع المسلمين، وداعياً إلى وجهها الصحيح الذي أفسده كرّ الغداة ومر العشى كما طمس معالمه إتباع الأهواء، واقتفاء سنن الآباء والأجداد.

إذن فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى*صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ إشارة إلى قِدم هذه الدعوة وعراقة منبتها، وامتداد جذورها في شعاب الزمان، وتوحيد أصولها من وراء الزمان والمكان. ووحدة الحق، ووحدة العقيدة هي الأمر الذي تقتضيه وحدهُ الجهة التي صدر عنها، ووحدة المشيئة التي اقتضت بعثة الرسل إلى البشر. إنه حق واحد يرجع إلى أصل واحد تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة، والأطوار المتعاقبة، ولكنها تلتقي عند ذلك الأصل الواحد الصادر من مصدر واحد... من ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

هذا.. وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمدﷺ هو ما جاء في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى. كما في هذه الآية، أو هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم، وموسى، وعيسى.. كما جاء في آية الشورى.

إذن.. ففيما يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ !.

وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؟ !.

وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ﷺ ؟ !.

وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟ !.

ولم لا يتضام الجميع ليتفقواْ تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير ؟، والوصية الواحدة الصادرة للجميع: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ؟!!.

فيقيمواْ الدين ويقوماواْ بتكاليفه، ولا ينحرفواْ عنه، ولا يلتوواْ به، ويقفواْ تحت رايته صفاً، وهي راية واحدة، رفعها على التوالي: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى – صلوات الله وسلامه عليهم – حتى انتهت إلى محمد ﷺ في العهد الأخير.

الدليل الخامس: قوله ﷺ: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة. قالواْ: كيف يا رسول الله ؟ قال: الأنبياء أخوة من علاّت أمهاتهم شتى، ودينهم واحد فليس بيننا نبي)(١).

قال الإمام النووي(٢): قال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، وأما قولهﷺ (ودينهم واحد) فالمراد به أصول التوحيد، وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً.

ويقول الحافظ ابن كثير في معنى هذا الحديث (٣): يعنى بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٤).

---

(١) الحديث متفق عليه. واللفظ لمسلم. انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ / صـ١١٩. كتاب فضائل الأنبياء، باب فضل عيسى عليه السلام، ومعنى العلات: هم الأخوة لأب من أمهات شتى.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي. جـ١٥ / صـ١٢٠. وانظر فتح الباري جـ١٣ / صـ٢٤٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم. جـ٢ / صـ ٦٢.

(٤) سورة الأنبياء. آية رقم ٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

وبعد: فهذه بعض الأدلة على اتحاد أصول الرسالات الإلهية، ومنها يتبين لنا أن دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين متفقة في الأصول والمبادئ العامة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وإن اختلفت كل رسالة عن سابقتها في الفروع التي يحتاج إليها الناس مع تغير الأزمان واختلاف الأحوال.

❁❁❁❁❁❁❁❁❁

❁❁❁❁❁❁❁

(١) سورة النحل. آية رقم ٣٦.

المبحث الثالث

القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب العقيدة

من أعظم نعمة الله تعالى على الناس أن خلقهم مفطورين على معرفته تعالى ومعترفين بوجوده، وجعل هذه الفطرة راسخة فيهم لا تتبدل منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ثم عزز تعالى هذه الفطرة بما بثه في الكون من مخلوقات نصبها آيات شاهدة على وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

ولكن لما كانت معرفة الله تعالى لا تتم على وجه التفصيل إلا بوحي من عنده فقد اقتضت حكمته تعالى أن يبعث في الناس رسلاً مبشرين ومنذرين ليعرفوا العباد بخالقهم ولئلا يبقى لمعتذر عذر.

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(٣).

كما اقتضت حكمته تعالى أن يأتي هؤلاء الرسل بتفصيل كيفية عبادته تعالى لأن ذلك مما لا يعرف إلا بوحي منه جل وعلا.

---

(١) سورة النساء. آية رقم ١٦٥.

(٢) سورة الروم. آية رقم ٣٠.

(٣) سورة العنكبوت. آية رقم ٢٠.

والمتأمل في دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يجد

أنها جميعاً متفقة في الأصول والمبادئ العامة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وإن اختلفت كل رسالة عن سابقتها في الفروع التي يحتاج إليها الناس مع تغير الأزمان واختلاف الأحوال، ولهذا فإن الرسالات السماوية يصدق بعضها بعضاً، وتكمل اللاحقة منها السابقة وتمهد للرسالة الآتية بعدها، وما كان ذلك إلا لأنها جميعاً من عند الله سبحانه وتعالى، أي أن المصدر واحد، وتهدف إلى غاية واحدة، هي الدعوة إلى الإسلام، وما أروع تصوير الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا المعنى في الحديث الشريف إذ يقول: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله إلاّ موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون حوله ويعجبون ويقولون: هلا وضعت اللبنة فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين "[1].

أنها إذن جميعاً ذات أصول واحدة وإن اختلفت الشرائع والأحكام، وذلك لأن المصدر واحد، وفيما يلي بيان لهذه الأصول:

(١) رواه البخاري ومسلم.

المطلب الأول

الدعوة إلى التوحيد

من القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الدعوة إلى التوحيد، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: معنى التوحيد.

التوحيد: مصدر وحد الشيء، يوحده توحيداً. إذا أفرده ونفى عنه التعدد [١].

والتوحيد في عرف الشرع: نفي الكفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته وعبادته عزّ وجل. قال تعالى في نفي الكفء [٢]: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٣].

وقال سبحانه في نفي الشريك في الربوبية: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾[٤].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[٥].

وقال تبارك اسمه في نفي الشريك في العبادة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾[٦].

---

(١) لسان العرب – ابن منظور – جـ٦ صـ٤٧٨١

(٢) عقيدة المؤمن – الشيخ أبو بكر الجزائري صـ٨٧.

(٣) سورة الإخلاص بكاملها.

(٤) سورة الرعد. آية رقم ١٦.

(٥) سورة يونس. آية رقم ٣١.

(٦) سورة محمد. آية رقم ١٩.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّـهِ رَبِّ الْعَـالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

إذن فتوحيد الله معناه اعتقاد أنه سبحانه وتعالى إله واحد لا شريك لـه، ونفـي المثل والنظير عنه، والتوجه إليه وحده بالعبادة.

فإذا قيل الله واحدٌ أو أحد كان معنى ذلك انفراده بمـا لـه مـن ذات وصـفات وعدم مشاركة غيره له فيها، فهو واحدٌ في ألوهيته فلا إلـه غيـره، وواحـد فـي ربوبيته فلا رب سواه، وواحد في كل ما ثبت له من صفات الكمال التي لا تنبغي إلاّ له.

ثانياً: التوحيد دعوة جميع الأنبياء والمرسلين.

لقد دعا أنبياء الله ورسله – صلوات الله وسلامه عليهم – أقوامهم إلى الإيمـان بالله تعالى وحده والإقرار بعظمته وقدرته، وأنه سـبحانه المـدبر الأعلـى لجميـع الكائنات، والتعرف على صفاته سبحانه وأسمائه، والبحث عن آياته في خلقه وروعة صنعه لتتم عبادته وحده دون سواه، وبذلواْ – صلوات الله وسلامه عليهم – في ذلـك جهوداً متواصلة من أجل تصحيح اتجاه المكلفين في هذه المسألة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلا أَنَـا فَاعْبُدُونِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِـنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام. آية رقم ١٦٢.

(٢) سورة الأنبياء – آية رقم ٢٥.

(٣) سورة الزخرف – آية رقم ٤٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(١).

إذن... فكل نبيٍ بعثه الله تعالى دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

يقول الحافظ بن كثير(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾:-

بعث الله في كل أمة – أي كل قرن وطائفة من الناس – رسولاً وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طَبّقَتْ دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب. وكلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

إذن... فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس لا تبديل فيها ولا تحويل. توحيد الإله، وتوحيد المعبود، فلا انفصال بين الألوهية والربوبية، ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة. قاعدة ثابته ثبوت النواميس الكونية متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها.

ثالثاً: حديث القرآن الكريم عن دعوة الرسل إلى التوحيد.

لقد بين لنا القرآن الكريم أن التوحيد هو أساس دعوة الرسل فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٣).

---

(١) سورة النحل – آية رقم ٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، جـ٢ / صـ٥٢٢.

(٣) سورة الأنبياء. آية رقم ٢٥.

وقد بذلواْ – صلوات الله وسلامه عليهم – في سبيل التوحيد كل وقتهم وخاطرواْ بمهجهم وأرواحهم. ولا عجب فهو زبدة الرسالات الإلهية وغايتها، وقطب رحاها، وعمدتها، ترتكز كلها عليه، وتستند في وجودها إليه، وتبتدئ منه، وتنتهي إليه. ولا عجب فهو يقوم على إفراد العبد ربه بما هو محض حقه من أنواع العبادة وصورها وإخلاص القصد والإرادة في أدائها، واعترافه على نفسه وعلى غيره من المخلوقات بلزوم العبودية لهم في سائر الحالات، فالله وحده هو ربهم ومليكهم والقاهر فوقهم والمتصرف فيهم بما يشاء ولا دافع لقضائه ولا راد لمشيئته وهم جميعاً عبيده المربوبون الفقراء المحدثون الضعفاء الذين لا غنى لهم عنه طرفة عين ولا قيام لهم بدونه لحظة من زمان.

قال تعالى في شأن نوح – عليه السلام –: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقال تعالى في شأن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقال تعالى في شأن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣).

وقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأعراف. آية رقم ٥٩.
(٢) سورة الأعراف. آية رقم ٦٥.
(٣) سورة الأعراف. آية رقم ٧٣.
(٤) سورة العنكبوت. آية رقم ١٦.

وقال تعالى في شأن يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

وقال تعالى مبيناً ما قاله ليوسف – عليه السلام – لصاحبيه في السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى في شأن شعيب عليه السلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال تعالى مبيناً دعوة موسى لقومه: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة. آية رقم ١٢٣.

(٢) سورة يوسف. الآيتان ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة الأعراف. آية رقم ٨٥.

(٤) سورة طه. آية رقم ٩٨.

(٥) سورة الأعراف. الآيات ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠.

وقال تعالى مبيناً أن عيسى – عليه السلام – دعا قومه إلى توحيد الله تعالى توحيداً مطلقاً في الذات والصفات والأفعال وبين أن هذا التوحيد حقيقة توضحها خالقية الله تعالى لسائر الموجودات وقدرته الأزلية الأبدية: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

ويقفي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ على هذه الرسالات كلها بدعوة الناس جميعاً إلى عقيدة التوحيد الخالص ويعلن أنه لن يقبل من أحد سواها مهما كانت منزلته ومكانته فيقول كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٣).

ويقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة المائدة. آية رقم ١١٧.
(٢) سورة النساء. آية رقم ٣٦.
(٣) سورة الأعراف. آية رقم ١٥٨.
(٤) سورة فصلت. آية رقم ٦.
(٥) سورة آل عمران. آية رقم ٨٥.

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(١).

وهكذا... يتبين لنا من خلال ما سبق أن أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم– دعواْ قومهم إلى التوحيد المطلق لله تعالى الذي يقتضي توحيد الألوهية والربوبية معاً وكان ذلك هو الهدف الأساسي من كل دعوة.

وعندما نتأمل في الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول وهي قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٢) نجد أنها الكلمة التي لا تتبدل وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلاّ بها، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة، ووحدة الهدف، ووحدة الرباط. وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد.

إن دين الله منهج للحياة، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله، وهذا هو معنى عبادة الله وحده، ومعنى ألاّ يكون للناس إله غيره... والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه، وتدبير أمره بقدرة الله وقدره.

كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره.

وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية وقيامها على شريعته وأمره تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده.. كلها حزمة واحدة.. غير قابلة للتجزئة.. وإلاّ فهو الشرك، وهو عبادة غير الله معه أو من دونه !.

(١) سورة محمد. آية رقم ١٩.

(٢) سورة الأعراف. آية رقم ٥٩.

رابعاً: حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء أقوامهم.

لقد دعا الأنبياء أقوامهم إلى الإيمان بالله سبحانه الذي هو معناه: إفراده تعالى بالألوهية والربوبية والعبادة، ومن ثم إفراده سبحانه بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه في كل أمر من أمور الحياة.

فليس هناك شركاء – إذن – في الألوهية أو الربوبية، فلا شريك له في الخلق، ولا شريك له في تصريف الأمور، ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد، ولا يرزق الناس معه أحد، ولا يضر أو ينفع غيره أحد، ولا يتم شئ في هذا الوجود صغيراً كان أو كبيراً إلاّ ما يأذن به تعالى ويرضاه.

وليس هناك شركاء في العبادة يتجه إليهم الناس، لا عبادة الشعائر، ولا عبادة الخضوع والدنيوية.

فلا عبادة إلاّ لله، ولا طاعة إلاّ لله، ولمن يعمل بأمره وشرعه فيتلقى سلطانه من هذا المصدر الذي لا سلطان إلاّ منه.

فالسيادة على ضمائر الناس وعلى سلوكهم لله وحده بحكم هذا الإيمان.

ومن ثم فالتشريع وقواعد الخلق ونظم الاجتماع والاقتصاد لا تتلقى إلاّ من صاحب السيادة الواحد الأحد.. من الله سبحانه وتعالى.

فهذا هو معنى الإيمان بالله الذي دعا إليه الأنبياء أقوامهم، ومن ثم ينطلق الإنسان حراً إزاء كل من عدا الله، طليقاً من كل قيد إلاّ من الحدود التي شرعها الله، عزيزاً على كل أحد إلاّ بسلطان من الله.

إنّ الإيمان بالله تعالى هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى، وشتى الأشياء، وشتى الاعتبارات... إلى عبودية واحدة لله تعالى تتحرر بها النفس من كل عبودية وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد ثم ترتفع بها فوق كل شئ وكل اعتبار.

وهي نقطة التحول كذلك من الفوضى إلى النظام، ومن التيه إلى القصد ومن التفكك إلى وحدة الاتجاه.

فهذه البشرية دون إيمان بالله تعالى الواحد لا تعرف لها قصداً مستقيماً ولا غاية مطردة، ولا تعرف لها نقطة ارتكاز تتجمع حولها في جد ومساواة كما يتجمع الوجود كله واضح الأهداف والارتباطات والعلاقات.

خامساً: منهج الرسل صلوات الله وسلامه عليهم في التدليل على التوحيد.

ومنهج الرسل – عليهم الصلاة والسلام – في التدليل على التوحيد يتضمن توجيه النظر إلى سنن الله في الأنفس والآفاق، ليتفكر الإنسان في طبيعة الكون وطبيعته، ويدرك طاقته وخصائصه الإيجابية، وسنة الله في الحياة البشرية عبر تاريخ الإنسان ليتربى لديه الإدراك، ويتقوم عنده منهج النظر والحكم، ويصان من العبث الذي وقع فيه يوم أن أعرض عن هداية الله ومشى خلف الأوهام.

وقد شرح رسل الله – صلوات الله وسلامه عليهم – للناس ما يكفيهم من صفات الله وأفعاله، وبينواْ لهم بداية هذا العالم ومصيره، وكفوهم مؤونة البحث في علوم ليس عندهم مبادئها، ولا مقدماتها التي يبنون عليها أبحاثهم، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة، ولكن الناس لم يشكرواْ هذه النعمة، وأعادواْ الأمر جذعاً وبدأواْ البحث آنفاً في ساحة مجهولة، وكانواْ على غير بصيرة فأتواْ بآراء فجة ومعلومات ناقصة، وخواطر سانحة، ونظريات مستعجلة، فضلواْ بذلك وأضلواْ كثيراً (١).

والإنسانية تحتاج إلى منهج الرسل في هذا السبيل، تأخذ منه وتلتزم به وهو كامل بنفسه صالح مصلح للإنسان، وهو يدعو إلى مصاحبة صنع الله عز وجل في الأنفس والآفاق، ليعرف الإنسان الصانع من صنعته، ويقدر عظمته، ويجله ويحبه، ويعرف قدر أنعمه عليه ويطبع إدراكه بخصائص تلك الصنعة وما فيها من دقة وانتظام وتناسق وإحكام.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ !. أبو الحسن الندوي صـ٦٨ بتصرف.

ولقد لفت رسل الله – عليهم السلام – نظر الإنسان إلى التغيير في أحوال البشر والكون، ليعرف الإنسان أن الدائم الذي لا يتغير هو إله واحد ويدرك ثبات سننه، ويوقن بأن الأمور لاتمضي جزافاً، وأن الحياة لم توجد عبثاً، وأن وراء كل ذلك قدرة القادر وتدبير المدبر، فيغير ما بنفسه ويترك الغفلة التي تبعده عن ربه، ويصحواْ على عينه عز وجل ترقبه وترعاه، وتحسن له الجزاء إذا هو أحسن، وتعاقبه إن هو أساء.

وهذا المنهج وحده هو الكفيل بسعادة الإنسان الحقة وبعلاقته اللائقة بخالق الكون، مدبر الأمر، الذي لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

ولقد اتفق رسل الله جميعاً على التوحيد والدعاء إليه ونفي الشرك بجميع أقسامه، وأن الإيمان والعمل مقترنان لا يفترقان(١).

كما اتفقواْ على أصول منها:

أن الله سبحانه واحد لا شريك له في ملكه، ولا ند له ولا ضد، ولا وزير ولا مشير ولا ظهير، ولا شافع إلاّ من بعد إذنه، وأنه لا والد له ولا ولد ولا كفؤ ولا زوجة، وأنه غني بذاته، فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شئ مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه، وأنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته، وأنه أعظم من كل شئ وأكبر من كل شئ وفوق كل شئ وأنه قادر على كل شئ، وفعالٌ لما يريد، وأنه عالم بكل شئ، يعلم السر وأخفى، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢).

(١) إرشاد الثقات – محمد بن علي الشوكاني. صـ١٢٤ بتصرف..

(٢) سورة الأنعام. آية رقم ٥٩.

وقد أحاط سمعه تعالى بجميع المسموعات، وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾(١).

وهو الشاهد الذي لا يغيب ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج خلقه، وهو مرسل الرسل ومنزل الكتب، والقائم على كل نفس بما كسبت، وهو صمد قدوس سلام، له الكمال المطلق من جميع الوجوه (٢).

وحين تستقر في أخلاد الناس تلك الحقائق تستقيم أحوالهم وصلاتهم فكلهم يعبدون رباً واحداً، والقربى إليه في متناولهم جميعاً، وهم متساوون في موقفهم منه، وعلى بساطة هذه الحقائق، هي قاعدة نظام وارتباطات مجتمع، وعلا قات أجيال وأمم.

على أن دعوة الرسل – عليهم السلام – كانت إلى وحدة الألوهية، وليس إلى وجود الألوهية في ذاتها، لقد كلف كل واحد منهم – عليهم السلام – أن يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وأما وجود الألوهية فأمر مفروغ منه.

وتَنَكُّبُ الإنسانية لمنهج الرسل في الدعوة إلى الوحدانية، أودى بها في مهاوي الزيغ والضلال، وأوقعها في الاختلاف الذي جر عليها الكثير من الويلات. ومن أخطرها اتخاذها بشراً إلهاً يُعبد من دون الله، أو يجعل شريكاً له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ونشوة الألوهية تُخرج مدعيها عن حدوده فضلاً عن عجزه وعدم استطاعته العلم المحيط والعدل المطلق، والتعفف والتزهد في مطامع الدنيا والتجرد عن الشهوات، ومن كل ذلك ينشأ الظلم والجور والتكبر في الأرض بغير حق، وحرمان

(١) سورة البقرة. آية رقم ٢٥٥.

(٢) هداية الحيارى لابن القيم. صـ٩٦ بتصرف.

الروح من الحرية الفكرية والفطرية، وفقدان الشخصية الإنسانية لكمالها المنشود، ومن أجل ذلك كان نداء رسول الله ﷺ الذي أمره به ربه جل وعلا، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١).

وليس لأحد – ولو كان رسولاً – أن يدعواْ الناس أن يكونواْ عبيداً له، لأنهم جميعاً عبيد الله وحده، لا رب لهم سواه. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٢).

إن رسالات الرسل جميعا دعت إلى عبادة إله واحد، والدينونة له دون غيره، وإقامة نظام العدل على أساس من الهدى والبينات.

ولا يقوم في وجه الإنسان شئ من المخلوقات يدعي الألوهية والربوبية وإنما الإنسان وحده هو الذي يدفعه حب السلطة وهوى الأثرة على أن يجعل نفسه إلهاً لغيره، ليستعبدهم وينفذ فيهم أمره، يجعلهم آلة لتحقيق هواه، إذا تهيأ له من الوسائل ما يراه كافياً، وإلاّ لجأ إلى سلاح الشعوذة والدجل، وعمد إلى روح أو آلهة، ونادى في الناس: هذا هو إلهكم وله القدرة على أن ينفعكم أو يضركم، ويكون دوره معرفة مرضاته، ومن ثم تكون له الهيمنة والسلطنة باسمه(٣).

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم بالدعوة إلى التوحيد قاوماواْ ذلك كله وأنقذواْ البشرية من أخطار أحدقت وتحدق بها إذا سارت في غير طريقهم واتبعت غير

(١) سورة آل عمران. آية رقم ٦٤.

(٢) سورة آل عمران. الآيتان رقم ٧٩، ٨٠.

(٣) نظرية الإسلام وهدية. أبو الأعلى المودودي صـ٢٥ بتصرف.

منهجهم المستقيم. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

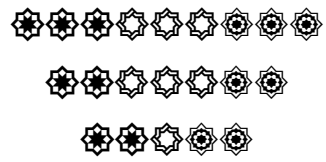

(١) سورة الأنعام. آية رقم ١٥٣.

المطلب الثاني

الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الإيمان باليوم الآخر، وفيما يلي بيان ذلك.

أولاً: التعريف باليوم الآخر.

إن المراد من اليوم الآخر أمران:

الأول: فناء هذه العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة بكاملها.

والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها. فدلّ لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة، فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال واختلاف أحوال، كما هو مقتضٍ كذلك لتصديق الله تعالى في إخباره عن الحياة الأخرى وما فيها من نعيم وعذاب وما يجري فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق وحشرهم وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الإدارية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا [1].

ثانياً: وجوب الإيمان باليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة من بعث وحشر وحساب وجنة ونار وغير ذلك.

---

(١) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري. صـ٣٢١.

وهذا الإيمان ركن من أركان ستة [١]. تتبني عليها عقيدة المؤمن فلا تتم عقيدته إلاّ به ولا تصح إلاّ عليه. وهو العنصر الهام الذي يلي الإيمان مباشرة، لأن الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذي صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود.

وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يحدد هدفه ويرسم غايته ويتخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف ويبلغ به الغاية.

ومتى فقد الإنسان هذه المعرفة فإنّ حياته سوف تبقى حياة لا هدف منها ولا غاية منها. وحينئذ يفقد الإنسان سموه الروحي وفضائله العليا، ويعيش كما تعيش الأنعام تسيرها غرائزها الطبيعية، واستعداداتها الفطرية وهذا هو الانحطاط الروحي المدمر لشخصية الإنسان [٢].

ولأهمية الإيمان باليوم الآخر في حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه عُنيَ القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى فقد ذكره في عشرات السور منه، وفي مئات الآيات، مرة بوصفه، ومرة بتقريره وتأكيد مجيئه، ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به، ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به.

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى وذلك كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٣]، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ

(١) أركان الإيمان الستة هي كما ورد في حديث جبريل – عليه السلام –: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

(٢) العقائد الإسلامية، السيد سابق. صـ٢٥٩.

(٣) سورة البقرة. آية رقم ٦٢.

كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[3].

في عدة آيات من كتاب الله تعالى، فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً وأن من عدمهما فقد عدم كل خير وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان وصلاح خلقه وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله لا يؤمن جانبه ولا يطمأن إليه ولا تسكن النفوس عنده وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير وينابيع الفضيلة والكمال البشري[4].

ثالثاً: حكمة الاهتمام باليوم الآخر.

وإنما اهتم القرآن هذا الاهتمام باليوم الآخر لعدة أسباب:

أولاً: أن المشركين من العرب كانواْ ينكرونه أشد إنكار، وقالواْ: ﴿مَاهِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾[5].

ثانياً: أن أهل الكتاب وإن كانواْ يؤمنون باليوم الآخر إلاّ أن تصورهم له قد بلغ منتهى الفساد.

---

(١) سورة الطلاق. آية رقم ٢.

(٢) سورة النساء. آية رقم ٣٨.

(٣) سورة النساء. آية رقم ٥٩.

(٤) عقيدة المؤمن. أبو بكر الجزائري. صـ٣٣٤.

(٥) سورة الجاثية. آية رقم ٢٤.

فالنصارى مثلاً: يعتمدون فيه على وجود يسوع الفادي المخلص الذي يفدي الناس بنفسه، ويخلصهم من عقوبة الخطايا.

وهذا يطابق ما يقوله الهنود في كرشنة وبوذا، سواءً بسواء.

وعقيدة اليهود في الله وفي اليوم الآخر لا تقل في فسادها وضلالها عن غيرها.

ثالثاً: أن الإيمان باليوم الآخر يجعل لحياتنا غاية سامية، وهدفاً أعلى وهذه الغاية هي فعل الخيرات وترك المنكرات والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل الضارة بالأبدان والأديان، والأعراض والعقول والأموال أي: تحقيق معنى خلافة الإنسان في الأرض.

ولا بد من تقوية الوازع النفسي الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر، ولا يقوى الوازع إلاّ بشدة التذكير والتفنن في التصوير، وضرب الأمثال المتنوعة حتى تعمق جذوره ويقوى تأثيره ويحقق الغاية منه، فيرجع المنكر عن إنكاره، ويصحح المخطئ خطأه، ويحدد كل إنسان هدفه الأعلى كي لا يضل الطريق أو تتعثر به الخطا.. [1].

رابعاً: دعوة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – إلى الإيمان باليوم الآخر.

إن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من فوز للمطيعين وعقاب للعصاة بعد بعث الخلائق وحسابهم أمرٌ أجمعت الدعوات السماوية على تأكيد إثباته حتى يشعر الإنسان بالمسؤولية الدائمة في كل شئ، ويعلم أن ما يفعله في حياته الدنيا سوف يلقاه في الآخرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(١) العقائد الإسلامية. السيد سابق صـ٢٦٥.

ولما كان الإنسان بفطرته يحس أن حياته ليست جسداً فقط ينتهي بالموت، بل إن له مع الجسد روحاً لا تفنى ولكنها تنتقل من مكان إلى مكان آخر تسعد فيه أو تشقى، وتنعم بأعمالها أو تعذب.

هذا الإحساس النظري عند الناس كان أساساً اعتمدته جميع الرسالات السماوية ووضحته بنصوصها المقدسة، وبينت أن البعث الأخروي أمر مؤكد، وأنه في يوم القيامة سوف يحاسب الجميع بأعمالهم ويجزون على الطاعة ثواباً خالداً ونعيماً مقيماً وعلى العصيان عذاباً أليماً.

ولعل الهدف من بيان حقيقة البعث وإثباته أولاً عند الناس هو تخويفهم من الإهمال وتحذيرهم من العصيان، ذلك أن الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – قدموا التخويف والتحذير في دعوتهم، وذكروهما قبل أي شئ آخر.

وأعظم التخويف هو بالبعث ويوم القيامة، وإنما قدم الرسل ذلك لأن غالبية القوم مقلدون، والمقلد لا ينظر في الدليل ولا يعتبر بالآيات إلاّ إذا خاف(١).

يقول الإمام الرازي (٢): إن المقلد إذا خوف خاف، ومالم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال، ولهذا السبب قدم الرسل التخويف دائماً كما أشارت لذلك سورة الشعراء. حيث كان الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – يقدمون قوله تعالى: ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾(٣). على قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٤).

لقد دعا الأنبياء جميعاً أقوامهم إلى الإيمان باليوم الآخر وتخويفهم مما فيه من عذاب أليم، والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة في كل دعوة نبي.

---

(١) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، الدكتور/أحمد غلوش، صـ١٦٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الإمام/ الفخر الرازي، جـ٦ / صـ٥٣٣.

(٣) سورة الشعراء. آية رقم ١٠٦.

(٤) سورة الشعراء. آية رقم ١٠٧.

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي [1]: الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه، ورد على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك أن الأنبياء – عليهم السلام – كلهم متفقون على الإيمان بالآخرة فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري، كلهم يقرواْ بالرب، إلاّ من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن منكريه كثيرون، ولما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفي، بين تفصيل الآخرة بياناً لايوجد في شئ من كتب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلاّ محمد ﷺ وجعلواْ هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري..

والقرآن بيّن معاد النفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان، ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلاّ محمد ﷺ على طريق التخييل ! وهذا كذب، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم – عليهم السلام –.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُون﴾[2].

ولما قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[3].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية. جـ٢ / صـ٥٨٩.

(٢) سورة الأعراف الآيتان رقم ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة ص. الآيات من ٧٩ – ٨١.

وأما نوح عليه السلام فقال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ (٢).

وبهذا خوفهم من عذاب عظيم مؤلم نازل على الطغاة والظالمين الذين لا يوحدون الله ولا يعبدونه، ولسوف يرونه في يوم القيامة كما أشار إلى ذلك الإمام أبو السعود (٣). في تفسيره.

وقال لهم أيضاً عليه السلام: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾(٤). أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

وهود – عليه السلام – يقول لقومه في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٥).

وإبراهيم – عليه السلام – بين أن الإيمان باليوم الآخر جزء من العقيدة لا تتم إلاّ به، ولا ينزل الخير والأمن في الدنيا إلاّ على أساس الإيمان كله بين ذلك وهو يدعواْ ربه قائلاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف. آية رقم ١٥٩.

(٢) سورة هود. آية رقم ٢٦.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،للإمام أبو السعود، جـ٥/صـ١٩٩.

(٤) سورة نوح. آيتان رقم ١٧، ١٨.

(٥) سورة الشعراء. آية رقم ١٣٥.

(٦) سورة البقرة. آية رقم ١٢٦.

فنراه – عليه السلام – يقصر دعوته بالخير والأمن على من يستحقها من الناس، والمستحق هو مَن آمن بالله واليوم الآخر، أما الكافر بهما فهو إن تمتع فإنه يتمتع قليلاً في الدنيا لكنه في الآخرة سوف يعذب بعذاب النار وبئس المصير.

ويقول أيضاً – عليه السلام –: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(١).أي: وهو الذي لا يقدر على غفران الذنوب إلاّ هو.

وقال أيضاً عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(٢). أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وشعيب – عليه السلام – خوف قومه من عذاب يوم القيامة ودعاهم إلى العمل الصالح لينعموا برحمة الله تعالى. فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٣).

وقال أيضاً: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(٤).

فنراه – عليه السلام – يأمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأسه سبحانه ونقمته وسطوته يوم القيامة، وإنما قال لهم هذا رجاء أن يستجيبوا لدعوته ويؤملوا في ثواب اليوم الآخر.

---

(١) سورة الشعراء. آية رقم ٨٢.

(٢) سورة إبراهيم. آية رقم ٤١.

(٣) سورة هود. آيتان رقم ٨٤، ٨٥.

(٤) سورة العنكبوت. آية رقم ٣٦.

وأما موسى – عليه السلام – فقد دعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر، وكان ذلك من أصول دعوته وأحد الأركان التي يقوم عليها الإيمان. فقد قال الله تعالى له لما ناجاه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾(١).

ولما آمن السحرة بدعوة موسى – عليه السلام قالواْ لفرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾(٢).

أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، إنما لك أن تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار (٣).

وقالواْ أيضاً لفرعون لما توعدهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾(٤).

أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي فالمرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء.

---

(١) سورة طه. الآيات ١٤: ١٦.

(٢) سورة طه آية رقم ٧٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم. جـ٣ / صـ١٥١.

(٤) سورة الشعراء. آية رقم ٥٠.

إنهم بذلك أعلنواْ إيمانهم الذي لا يعبأ بالدنيا وعذابها، وذكرواْ أنهم ينتظرون الآخرة وما فيها من حساب وجزاء وفق ما أرشدهم إليه سيدنا موسى عليه السلام.

وأيضاً مؤمن آل فرعون الذي آمن بموسى عليه السلام ودعوته نادى في قومه قائلاً: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾(١).

ويوم التناد: هو يوم القيامة كما قرر ذلك المفسرون(٢).

وعيسى – عليه السلام – كان أول ما نطق به في المهد: البعث، فقد قال كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾(٣).

وهذا منه – عليه السلام – إثبات العبودية لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله سبحانه يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد – صلوات الله وسلامه عليه –.

هذا... وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات من القرآن، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(٤).

وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرسل أنذرواْ بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا

---

(١) سورة غافر آيتان ٣٢/ ٣٣.

(٢) الكشاف، للإمام الزمخشري، جـ٧ / ٣٧٠، وانظر أيسر التفاسير للشيخ/ الجزائري، جـ٤ / صـ٥٣١، وانظر صفوة التفاسير للشيخ/ الصابوني جـ٣ / صـ١٢٦٣.

(٣) سورة مريم. آية رقم ٣٣.

(٤) سورة الزمر. آية رقم ٧١.

والآخرة، فعامة سور القرآن التي ذكر فيها الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها: في الدنيا والآخرة.

هذا... ولقد حفلت الدعوة الإسلامية بإثبات اليوم الآخر وبينت أنه أحد أركان العقيدة الإسلامية والإيمان به شرط حتمي للإيمان. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(٣).

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقسم به سبحانه على المعاد، فقال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(٤).

يقول الحافظ ابن كثير(٥): يقول الله تعالى: ويستخبرونك (أحق هو) أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً (قل إي وربي إنه لحق وما أنتم

(١) سورة النساء. آية رقم ١٣٦.
(٢) سورة البقرة. آية رقم ١٧٧.
(٣) سورة البقرة. آية رقم ٢٨١.
(٤) سورة يونس. آية رقم ٥٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم. جـ٢ / صـ٣٨٢.

بمعجزين) أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(١).

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلاّ آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(٣).

وأخبر سبحانه عن اقترابها فقال تعالى:﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ *مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ (٦).

وذم المكذبين بالمعاد فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾(٨).

---

(١) سورة يس. آية رقم ٨٢.
(٢) سورة سبأ. آية رقم ٣.
(٣) سورة التغابن. آية رقم ٧.
(٤) سورة القمر. آية رقم ١.
(٥) سورة الأنبياء. آية رقم ١.
(٦) سورة المعارج. الآيات من ١– ٧.
(٧) سورة يونس. آية رقم ٤٥.
(٨) سورة الشورى. آية رقم ١٨.

وقال تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلاّ كفوراً﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قل كونوا حجارة أو حديداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً﴾(٥).

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال بسؤال على التفصيل، فإنهم قالوا أولاً ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت، كالحجارة

(١) سورة النمل. آية رقم ٦٦.
(٢) سورة النحل. آيتان رقم ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة غافر. آية رقم ٥٩.
(٤) سورة الإسراء. الآيات من ٩٧: ٩٩.
(٥) سورة الإسراء. الآيات من ٤٩: ٥٢.

والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟! فإن قلتم: كنا خلقا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً؟!!....

وللحجة تقرير آخر وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة، فما الذي يعجزه فيما دونهما ؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: (مَنْ يُعِيدُنَا) إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله:

﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (١). فلما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلواْ إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم (مَتَى هُوَ) فأجيبواْ بقوله (عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً).

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢).

فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضع الأدلة وصحة البرهان لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جواباً، فكان في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ ما وفَّى بالجواب وأقام الحجة، وأزال الشبهة، ولما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ

(١) سورة الإسراء. آية رقم ٥١.

(٢) سورة يس. الآيات من ٧٨: ٨٣.

مَرَّةٍ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه، قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفاصيل خلقه، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثاني. فإذا كان تام العلم كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها بارة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة مما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فأخبر سبحانه عن إخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشئ من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشئ الأجلّ الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل، فهو ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فأخبر الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى كما قال في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

(١) سورة غافر. آية رقم ٥٧.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

ثم أكد سبحانه ذلك، وبينه ببيان آخر وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة، ولا يمكنه الإستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة و معين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون: (كن) فإذا هو كائن كما شاءه وأراده (٢).

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شئ بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله: (وإليه ترجعون).

وهكذا... يتبين لنا أن الإيمان باليوم الآخر من القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

هذا.. ومن الجدير بالذكر أن الاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة، وأن الخير الذي تدعواْ إليه الرسالات السماوية هو غاية الحياة ومن ثم لا بد أن يلقى جزاؤه، فإن لم يلقه في هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون في العالم الآخر الذي تصل فيه الحياة البشرية إلى المقدر لها.

أما الذين يزيغون عن منهج الله وحكمته في الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب..

وفي هذا ضمان للفطرة السليمة ألاّ تنحرف، فإن غلبتها الشهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة ولم تلج في العصيان، ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر وتمضي الحياة على سننها في طريق الخير.

---

(١) سورة الأحقاف. آية رقم ٣٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية. جـ٢ / صـ٥٩٣ وما بعدها.

إن الاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقاً للثواب في الحياة الدنيا فحسب. كما يعتقد بعض الناس إنما هو الحافز على الخير في الحياة الدنيا، والحافز على إصلاحها وإنمائها، على أن يراعي في هذا النماء أنه ليس هدفاً في ذاته وإنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه وكرمه على كثير من خلقه، ورفعه عن درك الحيوان، لتكون أهداف الحياة أعلى من ضرورات الحياة، ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته، وهكذا ترتبط الدنيا بالآخرة، والمبدأ بالمصير والعمل بالجزاء، والتي تشعر الإنسان أنه ليس مهملاً وأنه لم يخلق عبثاً ولن يترك سدىً، وأن العدالة المطلقة في انتظاره ليطمئن قلبه ويفيء إلى العمل الصالح، وإلى عدل الله ورحمته في نهاية المطاف [1].

(١) اليوم الآخر في القرآن الكريم / صـ١٨، ١٩.

المطلب الثالث

الدعوة إلى الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولبيان ذلك نقول وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: النبوة اصطفاء من الله تعالى.

لقد اختار الله سبحانه وتعالى من بين خلقه، فريقاً من البشر ليكونواْ نموذجاً للكمال، وعنواناً للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الزمان وكر الدهور....

واصطفاهم المولى جلت حكمته ليكونواْ هداة ومصلحين، فاختارهم على علمه، ورباهم على عينه، وشرفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(١).

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم الأنبياء والمرسلون الذين شرفهم الله بالنبوة وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونواْ رسلاً بينه وبين خلقه، يبلغونهم أوامر الله عز وجل، ويحذرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

فالأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – هم خيرة الخلق، وصفوة البشر، وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بمحض الفضل الإلهي والحكمة الربانية، ولا يمكن لأحد من البشر – مهما سما في سلم الكمال – أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة

(١) سورة الأنبياء.آية رقم ٧٣.

النفسية، أو الجهد في الطاعة والعبادة، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة على فعل الخير والطاعة إنما هي هبة ربانية واصطفاء واختبار، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ (١).

ثانياً: التفاضل بين الأنبياء.

وهؤلاء الأنبياء الأطهار ليسواْ بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، بل بعضهم أفضل من بعض، فقد جعلهم الله تعالى درجات. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورا﴾(٣).

وأفضل الرسل إنما هو صفوة الخلق، وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ فهو آخر الأنبياء في البعثة، وأفضلهم في المنزلة والرتبة.. كما أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وهو أشرفها وأفضلها، فقد ختم الله تعالى بمحمد ﷺ الأنبياء كما ختم بالقرآن الوحي.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(٤).

ومما يدل على أن محمداً ﷺ سيد الرسل وأفضل الأنبياء والمرسلين أنه لم يبعث نبي قط إلا وقد اخذ الله تعالى عليه العهد والميثاق إن أدرك محمداً في حياته ليؤمنن به وليكونن من أنصاره وأتباعه.

فهذا من أعظم الشواهد على جليل قدره، وعظيم فضله ﷺ.

---

(١) سورة الأنعام.آية رقم ١٢٤.

(٢) سورة البقرة.آية رقم ٢٥٣.

(٣) سورة الإسراء. آية رقم ٥٥.

(٤) سورة الأحزاب.آية رقم ٤٠.

وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بُعث بعده ونصرته.

ولهذا قال تعالى وتقدس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة " ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ".

وقال ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة والسدي يعني عهدي وقال محمد بن إسحاق (إصري) أي ثقل ما حملتم من عهدي أي ميثاقي الشديد المؤكد ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقال طاووس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقتضيه،

---

(١) سورة آل عمران.آية رقم ٨١.

ولهذا روى عبد الرزاق عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، مثل قول علي وابن عباس.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا سفيان، عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟

قال: فتغير وجه رسول صلى الله عليه وسلم.

قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقال عمر: رضينا بالله ربا، بالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

قال: فسري عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»(١).

وقال الحافظ أبو بكر: حدثنا إسحاق حدثنا حماد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» (٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد – ج٢٥ ص ١٩٨ – تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٢) مسند الإمام أحمد – ج٢٢ ص ٤٦٨ – تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

وفي بعض الأحاديث « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي[١].»

فرسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب طاعته المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه فيكون هو المخصوص به صلوات الله وسلامه عليه. [٢].

هذا... ولقد قال – صلوات وسلامه عليه – مبيناً علو المنزلة التي أعطاه الله إياها بالسيادة في الدنيا والآخرة:

" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر "[٣].

وقد أشار القاضي عياض في كتابه – الشفاء [٤].– إلى منزع لطيف من القرآن الكريم في أفضلية الرسول ﷺ على سائر الرسل الكرام، وبيان أنه أشرفهم وأفضلهم، وذلك أن الله تعالى خاطب الرسل وناداهم بأسمائهم فقال عز من قائل في شأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم – الحافظ ابن كثير – جـ ١ / صـ ٣٣٢ – مكتبة العبيكان.

(٢) نفس المصدر السابق – جـ ١ / صـ ٣٣٢.

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تأليف: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، ج١١/ص١٨٢ – دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٩هـ–١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود عمر الدمياطي.

(٤) شرح الشفا، للإمام/ نور الدين القاري، جـ١، صـ ٢٦٥ وما بعدها.

إبراهيم – عليه السلام –: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وقال في حق نوح عليه السلام: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾(٢).

وقال في نداء موسى – عليه السلام –: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣).

وقال مخاطباً عيسى ابن مريم – عليه السلام –: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾(٤).

وهكذا بقية الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ناداهم بأسمائهم التي سموا بها إلا خاتم الرسل ﷺ، فقد خاطبه الله بوصف النبوة أو الرسالة إظهاراً لعظيم قدره وجلال فضله.

قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾(٥).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٦).

وقال جلت حكمته: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾(٧).

---

(١) سورة الصافات. الآيات رقم ١٠٤، ١٠٥.

(٢) سورة هود. آية رقم ٤٨.

(٣) سورة الأعراف. آية رقم ١٤٤.

(٤) سورة المائدة. آية رقم ١١٦.

(٥) سورة الأحزاب. آية رقم ٤٥.

(٦) سورة الأنفال. آية رقم ٦٤.

(٧) سورة المائدة. آية رقم ٤١.

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١).

ولا نجد في كتاب الله تعالى آية فيها خطاب للنبي ﷺ باسمه الصريح، مثل ما جاء في خطاب الأنبياء، وإنما كل الآيات الكريمة تخاطبه بلفظ النبوة وليس في الآيات الكريمة آية واحدة تقول يا محمد، وهذا من ألطف الإشارات إلى عظيم قدره ﷺ، وإلى أنه أفضل الرسل على الإطلاق.

فصلوات ربي وسلامه على صفوة الخلق، المبعوث رحمةً للعالمين، الذي خصه الله تبارك وتعالى بالشرف العظيم الذي لا يدانيه فيه أحد، وجعله سيد الأولين والآخرين.

هذا... وقد يقول قائل: كيف تفضلون بين الأنبياء والرسل، وقد قال القرآن الكريم: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(٢).

وللجواب على هذا نقول:

إن المراد في الآية الكريمة من التفريق بين الرسل: هو أن يؤمن الإنسان ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، حيث آمنواْ برسالة بعض الأنبياء وكفرواْ برسالة الآخرين، ففرقواْ بذلك بين الرسل.

وقد وضح الله سبحانه وتعالى هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾(٣).

---

(١) سورة المائدة. آية رقم ٦٧.

(٢) سورة البقرة. آية رقم ٢٨٥.

(٣) سورة النساء. آية رقم ١٥٠، ١٥١.

وليس المراد من التفريق التفضيلُ بين الرسل، بدليل أن الله تعالى قد فضل بعضهم على بعض بصريح القرآن.

فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾(٢).

فهذا المراد من الآية الكريمة قد أوضحته الآيات الأخرى، كما أوضحه بيان رسول الله ﷺ حيث قال كما جاء في صحيح مسلم:" والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هؤلاء يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي أُرسلت به إلا أدخله الله النار"(٣).

ثالثاً: حكم الإيمان بالأنبياء.

لقد فرض الإسلام الإيمان بالأنبياء جميعاً دون تفرقة بينهم، وجعل ذلك من أركان العقيدة الإسلامية.

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤).

وقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة. آية رقم ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء. آية رقم ٥٥.

(٣) رواه الإمام مسلم.

(٤) سورة البقرة. آية رقم ١٣٦.

(٥) سورة البقرة. آية رقم ٢٨٥.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾(١).

لقد اعتبر الإسلام الإيمان ببعض الأنبياء دون بعض خروجاً عن دين الله وهديه، وأن من كفر بنبي أو سب أحداً من النبيين الذين نص عليهم القرآن فهو غير مؤمن بما أنزل على محمدﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾(٢).

يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (٣).

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله، من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة، وما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود ــ عليهم لعائن الله ــ آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد صلى الله عليه وسلم، والسامرة لا يؤمنون بنبيّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم، والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس

(١) سورة النساء. آية رقم ١٣٦.

(٢) سورة النساء. آية رقم ١٥٠، ١٥١.

(٣) تفسير القرآن العظيم. ج١/صـ٥٠٩، ٥١٠.

إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بالله ورسله﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله، ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي في الإيمان، ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله، لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّه﴾ في الدنيا والاَخرة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

كما اعتبر الإسلام أن من يكذب بواحد من رسل الله فهو يرتكب جريمة التكذيب بهم جميعاً، لأنه لا فرق بين رسول ورسول، ولا بين نبي ونبي، إذ الجميع بعث في مهمة متحدة الأركان والأهداف، فمن كذب واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً.

وتأمل معي هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٢).

وقال جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٣).

وقال عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٤).

وقال جل جلاله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(٥).

أرأيت.. لقد كذبت كل أمة رسولها فقط، إلاّ أن تكذيبها ذلك إنما هو تكذيب بقضية واحدة تتابع الأنبياء على تبليغها، فاعتبرواْ مكذبين بجميع الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – بل مكذبين للمرسِل نفسه جل وعلا.

رابعاً: عدد الأنبياء والمرسلين.

إن عدد الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – لا يحصى، إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار على مائة وعشرين ألفاً، أما الرسل فهم قلة.

---

(١) سورة الشعراء. الآيات من ١٠٥ – ١٠٧.
(٢) سورة الشعراء. الآيات من ١٢٣ – ١٢٥.
(٣) سورة الشعراء. الآيات من ١٤١ – ١٤٣.
(٤) سورة الشعراء. الآيات من ١٦٠ – ١٦٢.
(٥) سورة الشعراء. الآيات من ١٧٦ – ١٧٨.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: " قلت يا رسول الله: أي الأنبياء أول ؟

قال: آدم.

قلت: يا رسول الله أو نبياً كان ؟

قال: نعم. نبي مكلم.

قلت: يا رسول الله كم المرسلون ؟

قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جماً غفيراً.

" وفي رواية أخرى ":- قلت: يا رسول الله كم الأنبياء ؟

قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم ؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً. " (١).

ولا نستبعد هذا العدد أو نستكثره، فقد خلا في النوع البشري من الأمم والأجناس مالا يحيط به علماً إلاّ الخالق سبحانه، ولا يستطيع التاريخ أن يلم به معرفة وإحصاءاً، فإذا كان قد خلا في كل أمة رسول واحد على الأقل كما قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾(٢).

وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٣).

وكما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾(٤).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج١، صـ٥٤، دار صادر بيروت.

(٢) سورة يونس. آية رقم ٤٧.

(٣) سورة الرعد. آية رقم ٧.

(٤) سورة النحل. آية رقم ٣٦.

وكما قال تبارك اسمه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١).

مع أنهم كانواْ يتعددون أحياناً – إذا كان الأمر كذلك – فقد جاوز عدد الأنبياء الآلاف، وهذا ما تشير إليه رواية الإمام أحمد السابقة.

هذا... وإن القرآن الكريم لم يقص علينا من أخبار هذه الجمهرة الكثيرة إلاّ عدداً محدوداً لايزيد عن خمسة وعشرين، ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢).

وأما السبعة الباقون فقد ورد ذكرهم في آيات متفرقة من كتاب الله الكريم وهم: آدم، وإدريس، وذو الكفل، وهود، وصالح، وشعيب، ومحمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين–.

وهؤلاء الأنبياء جميعاً يجب الإيمان بهم تفصيلاً، بمعنى أنه يتعين التصديق برسالتهم بأشخاصهم وأسمائهم لأنهم ذكرواْ في القرآن الكريم.

أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم جملة، بمعنى أن نصدق بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكرواْ في القرآن الكريم، لأن الله تعالى اخبر عنهم في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾(٣).

---

(١) سورة فاطر. آية رقم ٢٤.

(٢) سورة الأنعام. الآيات من ٨٣ – ٨٧.

(٣) سورة النساء. آية رقم ١٦٤.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(١).

هذا.. ومع كثرة الأنبياء وتعددهم إلاّ أننا نجزم أنهم جميعاً ما دعواْ إلاّ إلى الذي دعا إليه محمد ﷺ.. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٢).

وقال ﷺ: " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فحسنه وجمله إلاّ موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون حوله ويعجبون ويقولون: هلا وضعت اللبنة فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين " (٣).

وقال ﷺ " نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد " (٤).

قال الإمام ابن حجر " أولاد علات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى، والعلات: الضرائر ".

ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد. وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع(٥).

ويقول الإمام ابن كثير(٦). في تعليقه على هذا الحديث: " أي أن القدر المشترك

---

(١) سورة غافر. آية رقم ٧٨.
(٢) سورة الشورى. آية رقم ١٣.
(٣) رواه البخاري ومسلم.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) فتح الباري. جـ٦ / صـ٤٨٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم. جـ٤ / صـ١١٠.

بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) [1].

❁❁❁❁❁❁❁❁❁

❁❁❁❁❁❁❁

❁❁❁❁❁

(١) سورة المائدة. آية رقم ٤٨.

المطلب الرابع

الدعوة إلى الإيمان بالملائكة

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في جانب العقيدة الإيمان بالملائكة، وذلك لأنه أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر، فمن أنكرها أنكر كل ذلك، لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم بإذن الله على النبي بأمور الدين كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (١).

وكما قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(٢).

أولاً: الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية.

لقد جعل الله سبحانه الإيمان بالملائكة من البر، ومن دلائل الصدق والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٣).

إن الإيمان لا يكون له حقيقة إلا إذا آمن الإنسان بهذا العالم الروحي إيماناً لا يتطرق إليه الشك، ولا تتسرب إليه الظنون.

---

(١) سورة القدر الآية رقم: ٤.

(٢) سورة الشعراء الآيات رقم: ١٩٣- ١٩٥.

(٣) سورة البقرة الآية رقم: ١٧٧.

وهذا هو نهج الأنبياء والمؤمنين الذين انكشفت الحقائق أمام أبصارهم، فأدركوا من الكون ما لم يدركه الغافلون[١].

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

وقال تعالى مثبتاً ضلال من يكفر بالملائكة: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾[٣].

إن هذا العالم الغيبي لا يدرك بالحس ولا بالعقل، بل إن الشياطين لا يمكنهم الوصول إليه: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾[٤].

وسبيل معرفته هو الوحي لأنه غيب من الغيوب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ* قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٥].

وكل ما يجب الاهتمام به أن نؤمن بهم، ونرعى حق صحبتهم، ونوثق صلتنا بهم كما أرشد الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(١) العقائد الإسلامية – الشيخ / السيد سابق ص ١٢٨.

(٢) سورة البقرة الآية رقم: ٢٨٥.

(٣) سورة النساء. آية رقم ١٣٦

(٤) سورة الصافات الآية رقم: ٨.

(٥) سورة البقرة الآية رقم: ٢٨٥.

(عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أنهكم عن التعري إن معكم من لا يفارقكم في نوم ولا يقظة إلا حين يأتي أحدكم أهله أو حين يأتي خلاءه ألا فاستحيوها ألا فأكرموها) [1]..

هذا.. ولقد جاء الحديث عن الملائكة في القرآن الكريم بمناسبات مختلفة في نحو خمس وسبعين آية من نحو ثلاث وثلاثين سورة.

كما جاء في كثير من أحاديث الرسول ﷺ التنصيص على أن الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية منها:

ما جاء في الحديث المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المتضمن أسئلة جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإسلام والإحسان والساعة – وقد جاء إلى مجلس الرسولﷺ على صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ولا يعرفه من أصحاب الرسول أحد– وفيه:

قال – أي جبريل – فأخبرني عن الإيمان، قال – أي الرسول –: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ". قال – أي جبريل – صدقت [2].

كما جاء فيها إثبات أن الرسول ﷺ قابل بعض الملائكة وفي مقدمة الأحاديث المثبتة لذلك أحاديث بدء الوحي واستمرار نزوله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهي متواترة في معناها.

وقد بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن غير الأنبياء الأتقياء – يمكن أن يقابلوا الملائكة في أحوال خاصة.

---

(١) شعب الإيمان – البيهقي – ج٦ ص ١٤٦.

(٢) سبق تخريجه.

فقد شكا حنظلة بن الربيع للنبي ﷺ تغير حالة الإيمان التي تعتريه وهو في مجلس الرسول يذكرهم بالنار والجنة، وذلك حينما ينصرف إلى أهله ويعافس الأزواج والأولاد والضيعات وظن ذلك نفاقاً، فقال له الرسول ﷺ

" والذي نفسي بيده: لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات " (١).

فمن أنكر وجود الملائكة فهو منكر لكلام الله ورسوله، كافر لا محالة، إذ لا مجال للتأويل فالنصوص واضحة صريحة قاطعة، والعلم بوجود الملائكة مما هو معلوم من الدين بالضرورة عند جميع المسلمين.

ثانياً: الحكمة من الإخبار بوجود الملائكة ووجوب الإيمان بهم.

وقد اقتضت حكمة الله في البشر أن يرسل لهم رسلاً بشراً منهم، وأن يرسل لهؤلاء الرسل رسلاً من الملائكة يقومون بدور الوساطة والسفارة بينهم وبين الله، يبلغونهم رسالات ما أوحي إليهم. قال الله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾(٢).

كما اقتضت حكمة الله تعالى أن يسخر الملائكة لكثير من الوظائف يقومون بها في الناس كنفخ الروح في الأجنة ومراقبة أعمال البشر والمحافظة عليهم وقبض أرواحهم وغير ذلك.

وحيث كان لهم كل هذه العلاقة بنا في كثير من أمور حياتنا، ومعاشنا وأعمالنا يضاف إلى ذلك ابتلاء الله لنا بالإيمان بمخلوقات غيبية عنا، يخبرنا بها، أخبرنا الله بوجودهم وكلفنا أن نؤمن بهم.

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦.

(٢) سورة النحل. آية رقم ٢.

ثالثاً: عقيدة الناس بالملائكة قبل الإسلام.

والناس أمام هذه العقيدة قسمان:

القسم الأول: وهم أتباع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وهؤلاء يؤمنون بالملائكة حتماً ثقة بإخبار الأنبياء والرسل لأن الإيمان بوجود الملائكة أمر نادى بـــه جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين.

القسم الثاني: وهم غير أتباع الأنبياء والرسل عليهم السلام وهؤلاء كما يلي:

فمنهم من لم يتعرض للملائكة بإثبات ولا نفي.

ومنهم من أثبت وجودهم، ومن هذا الفريق الروحانيون ومعظم الفلاسفة القدماء.

أما الفلاسفة: فقد أثبتوا وجودهم عن طريق الاستدلال العقلي وفق القسمة العقلية التي تصوروها في احتمالات الخلق.

وأما الروحانيون: فقد أثبتوا وجودهم عن طريق المكاشفة والمشاهدة بمصادفات خاصة أو برياضات روحية اتبعوها والله أعلم.

ومنهم الماديون الذين ينكرون كل الكائنات الغيبية. " [1].

(١) العقيدة الإسلامية، الشيخ/ عبد الرحمن الميداني، ص ٢٣٣ ومابعدها.

المطلب الخامس

الدعوة إلى الإيمان بالكتب السماوية

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الإيمان بالكتب السماوية، وفيما يلي بيان ذلك فنقول وبالله تعالى التوفيق.

أولاً: معنى الكتاب لغة وشرعاً.

الكتاب لغة: مصدر كتب كالكتب وأصل الكتب: ضم أديم إلى أديم بالخياطة واستعمل عرفاً في ضم الحروف وبعضها إلى بعض(١).

أما الكتاب شرعاً: فهو كلام من كلام الله تعالى فيه هدي ونور يوحي الله به إلى رسول من رسله ليبلغه الناس.

ويطلق اسم الكتاب شرعاً: على ما يشمل الصحف والألواح، وجميع أنواع الوحي اللفظي أو الكتابي، التي ينزلها الله على أي رسول من رسله ليبلغها إلى الناس وبأية لغة من اللغات نزلت صغيرة كانت أو كبيرة مدونة أو غير مدونة، فيها صفة الإعجاز اللفظي للناس أو ليس فيها ذلك(٢).

ولله سبحانه وتعالى تعاليم ووصايا أوحاها إلى رسله وأنبيائه، منها ما دون في كتب ومنها مالا علم لنا به، فلكل نبي رسالة بلغها قومه:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ

(١) لسان العرب ج ٥ ص ٣٨١٦.

(٢) العقيدة الإسلامية، الشيخ/ عبد الرحمن الميداني، ص ٤٦٦.

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١).

ثانياً: وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

الإيمان بالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم من أركان العقيدة الإسلامية، فالله تعالى يخاطب رسوله محمداً ﷺ ويأمره بأن يعلن إيمانه بجميع الكتب التي أنزلها الله فيقول تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾(٢).

وخطاب الرسول خطاب لكل من آمن برسالته، وقال الله تعالى يخاطب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾(٣).

وقال تعالى مبيناً عقيدة الرسول وعقيدة المؤمنين معه في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(٤).

ومن المعلوم أن أركان العقيدة الإسلامية متماسكة لا ينفك بعضها عن بعض، وأن الإيمان بواحد منها يستدعي الإيمان بسائرها وأن الكفر بواحد منها يستلزم نقض العقيدة الإسلامية من أساسها.

---

(١) سورة البقرة الآية رقم ٢١٣.
(٢) سور ة الشورى. آية رقم ١٥.
(٣) سور ة النساء. آية رقم ١٣٦.
(٤) سور ة البقرة. آية رقم ٢٨٥.

إذن فعقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان بكتبه، ذلك لأن من مقتضى الإيمان بالله الإيمان بالرسل المؤيدين من عنده بالمعجزات، ومن مقتضى الإيمان بالرسل تصديقهم في كل ما يبلغون عن الله تعالى.

ومن أجل ذلك يعلن المسلم دائماً – وفق عقيدته التي متى أخل بها كفر – أنه يؤمن بكتب الله كلها إجمالاً فيما يجهل منها، وتفصيلاً فيما يعلم، كما آمن برسل الله وأنبيائه جميعاً إجمالاً فيما جهل منهم وتفصيلاً فيما علم.

ثالثاً: حاجة الناس إلى كتب سماوية.

لا شك أن الناس في حاجة ماسة إلى رسل يبلغون الناس أحكام الله وشريعته لعباده، وذلك لأمور منها:

أولاً: ليكون الكتاب الرباني المنزل على الرسول هو المرجع لأمته مهما تعاقبت العصور.

فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسه ومبادئه وغاياته ويرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله لهم واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها والمحرمات التي ينهاهم عنها والفضائل والكمالات التي يحثهم عليها ويندبهم إليها.

كما يرجعون إليه ليطالعوا مواعظه ونصائحه، وأمثاله وآدابه وما تضمنه من بشائر ونذر ووعد ووعيد وسائر الوسائل والأساليب التربوية المختلفة الهادية إلى صراط الله المستقيم.

ويرجع إليه أيضاً المجتهدون من العلماء ليستنبطوا من نصوصه المختلفة الأحكام الشرعية لكل ما يجد في حياة الناس، وذلك حينما لا يتهيأ لهم الرجوع إلى الرسول مباشرة لبعدهم عنه في المكان أو الزمان.

ثانياً: ليكون الكتاب الرباني المنزل على الرسول هو الحكم العدل لأمته في كل ما يختلفون فيه، وما تتناوله من أحكام شريعة الله لهم.

فكتاب الله هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه لأنه كلام الله والله هو الحاكم، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ﴾(١).

وفي الإشارة إلى حاجة كل أمة إلى كتاب سماوي يحكم بينهم فيما يختلفون فيه، يقول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾(٢).

فقد تضمنت هذه الآية– والله أعلم _ أن الناس كانوا أمة واحدة على دين الفطرة منذ النشأة الأولى للخليقة، يوحدون الله ويعبدونه، فاختلفوا عن التوحيد والطاعة بتأثير عوامل الجهل والنسيان والهوى والشيطان، فبعث الله النبيين ليبشروا بالنعيم من آمن بالله وأطاعه، ولينذروا بالعذاب من كفر بالله وعصاه وأنزل مع كل رسول كتاباً يهدي إلى الحق ليكون هذا الكتاب السماوي هو الحاكم بين الناس فيما يختلفون فيه – وليس فوق حكم الله حكم، وليس فوق عدل الله عدل – وليقوم الرسل بوظيفة التبليغ والبيان ومعالجة الناس بدعوتهم إلى الخير وتربيتهم على الفضيلة، مطبقين مضمون كلام الله ووحيه (٣).

قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية (٤): قال القاضي: " ظاهر هذه الآية يدل على أنه لا نبي إلا معه كتاب منزل فيه بيان الحق طال ذلك الكتاب أم قصر، ودُوِّنَ ذلك الكتاب أم لم يُدَوَّنْ، وكان ذلك الكتاب معجزاً أو لم يكن كذلك، لأن كون الكتاب منزلاً معهم لا يقتضي شيئاً من ذلك ".

ثالثاً: ليصون الكتاب الرباني بعد عصر الرسول عقائد الدين وشرائعه وغاياته من ضلالات ذوي الأهواء الذين تسول لهم أنفسهم أن يتلاعبوا بالدين،

---

(١) سور ة الأنعام. آية رقم ٥٧.

(٢) سور ة البقرة. آية رقم ٢١٣.

(٣) العقيدة الإسلامية – ص ٤٦٦.

(٤) تفسير الفخر الرازي – ج ٤ ص ١٥.

وينسبوا إليه ما ليس منه وينحرفوا به عن صراط الله المستقيم، إرضاءً لشهواتهم وغرائزهم.

واستمرار الكتاب الرباني في أمة الرسول من بعده، بمثابة استمرار وجود الرسول الذي بلغه إليهم بين ظهرانيهم من حيث بيان أصول الدين وشرائعه وسائر مواعظه وآدابه.

ذلك لأن الرسل بشر،' يعرض لهم الموت كما يعرض لسائر البشر، أما حقائق الدين الذي يدعون إليه، وما يتضمن من مبادئ وشرائع، وأحكام وفضائل فإنها لا تموت.

ولولا استمرار كتب ثابتة بنصوصها بعد الرسل، لأسرعت دعواتهم إلى الاختلاف الواسع والتغيير الكثير عقب وفياتهم، لأن من طبيعة البشر أن يختلفوا في الاجتهادات، وأن تتباين نظراتهم إلى الأمور، وأن ينساقوا بسرعة وراء عوامل الشهوة والهوى والنفس، فإن لامهم صاحب إيمان ومعرفة على انحرافهم كذبوا على الله، فزعموا أن ما انحرفوا إليه هو من أحكام الله ومراداته في الدين، من أجل ذلك كان لابد للبشر من ضابط قانوني يلزمهم بمدلولات النصوص الصريحة، إلزاماً لا محيد عنه إلا بمكابر معاند، لا حجة له إلا الإصرار على الباطل.

رابعاً: ليحفظ الكتاب الرباني لدعوة الرسول ولرسالته تأثيرها وسريانها وقابلتها الاتساع والانتشار، مهما تباعدت الأمكنة أو الأزمنة عن مكان أو زمان نشأة الرسول صاحب الدعوة، وبخاصة حينما تكون دعوة عامة شاملة، كرسالة محمد صلوات الله عليه.

وذلك بالنظر إلى ما يتضمنه كلام الله من سمو عظيم، وحق خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فوجود الكتاب الرباني في الأمة من بعد الرسول بمثابة استمرار الرسول نفسه فيهم من حيث التعرف على أصول الدين وأحكام الشريعة، وسائر مواعظها وآدابها، وإن تكن الأمة قد فقدت من بعد الرسول الأسوة الحسنة المشهودة والقيادة السامية.

من أجل ما سبق ولحكم أخرى يعلمها الله تعالى – وهو العليم الخبير – أنزل الله على رسله كتبه فنطقت كتبه بشريعته، تأمر وتنهى وتعظ وترشد وتبشر وتنذر وتهدي إلى الصراط المستقيم وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وقد حمل رسل الله كتبه يبلغونها وينشرونها ويبينون ما ينبغي بيانه منها للناس، فأدوا الرسالة كما أمرهم الله ثم اختارهم الله إليه وتركوا من بعدهم كتاب الله وبياناتهم التي بينوها وسنتهم التي بلغوها وسير حياتهم التي عاشوها في أممهم لتكون للناس من بعدهم هدى ونوراً [1]..

❁❁❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁

(١) العقيدة الإسلامية – ص ٤٦٦ وما بعدها.

المطلب السادس

الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وقد تأسست هذه العقيدة على الإيمان بالله عز وجل وبنيت على المعرفة الصحيحة لذات الله العليا وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى.وفيما يلي بيان ذلك فنقول وبالله تعالى التوفيق.

أولاً: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر.

لا ريب أن الإسلام – وهو الدين الذي بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين– قد أوجب لله تعالى جميع نعوت الكمال وصفات الجلال والجمال ودواعي الحمد والتمجيد ووافق العقل النقل في ذلك كله، ثم فصلت هذه الكمالات الواجبة لرب الوجود الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

فكان في عداد ما ينبغي الإيمان به والاطمئنان إليه أن لله وحده صفات العلم الواسع والإرادة الشاملة، والقدرة الكاملة، وأنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد عالم بما يفعل.

وعلى هذه الصفات قامت عقيدة القضاء والقدر فكان الإيمان بها – لا ريب– جزءاً متماً للإيمان بالله وعنصراً من حقيقته الواضحة المشرقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرا ﴾(٢).

---

(١) سور ة القمر. آية رقم ٤٩.

(٢) سورة الفرقان، آية رقم ٢.

وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* والذي قدر فهدى﴾(١).

وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِير﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وكان عرشه على الماء﴾(٤).

وقال ﷺ: ﴿كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء﴾(٥).

وعن عمر أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره " (٦).

وقال ﷺ: " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر"(٧).

---

(١) سورة الأعلى. الآيات ١، ٢، ٣.

(٢) سورة الحديد. آية رقم ٢٢.

(٣) سورة الرعد. آية رقم ٨.

(٤) رواه مسلم.

(٥) صحيح البخاري، ج٦، صـ ٢٦٩٩، دار ابن كثير، بيروت.

(٦) شعب الإيمان للبيهقي، ج١، صـ ٢٥٧، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧) رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " الإيمان بالقدر نظام التوحيد " [١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن"[٢].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى فحج آدم موسى) [٣].

وقال ﷺ: (إن أول ما خلق الله القلم فقال اكتب فقال ما أكتب يا رب قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد) [٤].

نعم.. إن الله تعالى وسع كل شيء علماً، وأحاط بكل شيء خبراً، سواء في هيمنته: دبيب النمل في جحورها، أو وثبات الأفلاك في مداراتها.وشمول علمه يستغرق الأمكنة على تعدادها، والأزمنة على تطاولها، فما تغيب عنه بقعة في المشرق أو في المغرب، وما يغيب عنه يوم في الأزل أو الأبد.

وأحداث الحياة، وما أكثر ما يلوح في آفاق الحياة من خير وشر، وبأس ورجاء، وحزن وفرح – ذلك كله – استوعبه العلم الإلهي عداً وإحصاءً.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٥].

---

(١) رواه الديلمي، في مسند الفردوس.

(٢) رواه الحاكم في تاريخه والقضاعي.

(٣) صحيح مسلم، ج١٦، صـ ٢٠٠، ٢٠١.

(٤) تهذيب الكمال، للإمام يوسف بن الزكي،ج١٨، صـ ٤٥٧،مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٥) سورة يونس. آية رقم ٦١.

وفي صفحات هذا الكتاب خُطت سطور القضاء والقدر، وعرفت مصاير الأمور، ووضحت نهاياتها من شقاوة وسعادة، ولكن أنى لنا علم بذلك.

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين

ويتعلق القضاء والقدر بوقائع الحياة وأحداثها، وأعمال الناس وتصرفاتهم على نحوين واضحين متميزين، لكل نحو منهما حكمه الخاص وآثاره التي تترتب عليه(١).

ثانياً: أثر الإيمان بالقضاء والقدر.

لا شك أن المؤمن العاقل متى صح فهمه لحقيقة القضاء والقدر، وامتلأ قلبه عقيدة بأن كل ما يجري له من نعم، وما ينزل به من مصائب أمر محتوم مرسوم مرادٌ لله تعالى مقضيٌ بقضائه محدد بتقديره، منفذ بقدرته وراقب مع ذلك صفات الله العظيمة التي منها: علمه وحكمته ورحمته وعدله ثم وضع بين عينيه قوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)(٢).

إنه متى آمن بهذا وفهمه فهماً صحيحاً اطمأن قلبه لكل ما يجري في الكون مما لا كسب له فيه، ورضي بمراد الله مهما كان ذلك الأمر محزناً أو ساراً وانتقل من الأكوان إلى مكونها فارتقى في سلم محبة الله والقرب منه.

ولئن صدق القائل إذ يقول لممدوحه: " فما لجرح إذا أرضاكُمُوا ألمٌ " فإن المؤمن الصادق – وهو في مقام حبه لربه – حري بأن يقول مطمئن القلب: " رضيت بالله رباً وبقضائه حكماً إنه وليي وهو حسبي ونعم الوكيل".

---

(١)عقيدة المسلم، الشيخ/ محمد الغزالي، صـ ١١٥، ١١٦ بتصرف.

(٢) سور ة البقرة. آية رقم ٢١٦.

وبذلك يفرغ الله على قلبه معاني من السعادة لا يجدها في شئ آخر من محـــاب الدنيا ومسراتها.

ولما تحلى المسلمون الأولون بهذه العقيدة كانوا سادة وقادة وكـــانواْ خيـــر أمـــة أخرجت للناس وتحققت لهم السعادة العظمى في الدنيا والآخرة.

ولما وضحت هذه العقيدة في نفس عمر رضي الله عنه قال: " لا أبالي على أيها أصبح أو أمسى: على ما أحب أو على ما أكره، لأنني لا أدري أيهما خير لي ".!!

وصدق رسول الله صلوات الله عليه إذ يقول: " عجباً لأمر المـــؤمن ! إن أمـــره كله له خير – وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن – إن أصابته سراء شكر فكان خيراً لـــه، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له "(١).

هذا ما يدخل في دائرة القضاء والقدر الكبرى.

أما ما يدخل ضمن دائرة كسب الإنسان فإن المؤمن الصادق إن وجد من نفـــسه الاستقامة والطاعة وابتغاء مرضاة الله في أعماله، فإنه يحمد الله على توفيقه ويشكره على ما أنعم به عليه من فضل. وإن وجد من نفسه غير ذلك عـــاد عليهـــا بـــاللوم والتثريب والندم والحزن الشديد على ما فرط في جنب الله، ثم يقبل على ربـــه تائبـــاً مستغفراً من ذنبه، ذاكـــراً قـــول الله تعـــالى: ﴿إِنَّ اللَّـــهَ يُحِـــبُّ التَّـــوَّابِينَ وَيُحِـــبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٢).

❁❁❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁❁❁
❁❁❁❁❁

(١) رواه الإمام مسلم.
(٢) سور ة البقرة. آية رقم ٢٢٢.

المبحث الرابع

القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب العبادات

كان لاتفاق الرسالات الإلهية في إثبات وحدانية الله أن اتفقت بالضرورة في حتمية التوجه إلى الله الواحد بالعبادة الخالصة التي تشعر الإنسان المخلوق باحتياجه إلى الخالق، وضرورة العيش في حقيقة العبودية وصدقها.

جاء في محاسن التأويل: (والعبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، والطريق المذلل للسير يسمى معبداً وما سمي العبد بالعبد إلاّ لذلته لمولاه وفي العبودية لله تحرير النفس لله وتخليصها لعبادته وحده لا يشركه شئ ما لا في حبه ولا في خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والتقرب إليه)[١].

يقول الشيخ محمد عبده: (العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاد بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه)[٢].

إن العبادة تعتمد أساساً على غريزة التدين في نفس الإنسان والتي تبدو في الإحساس الخفي بوجود سلطان غيبي فوق قوى الكون والأسباب وصاحب هذا السلطان هو خالق السماوات والأرض وما فيهما وهو مصدر النفع والضر، والمستحق لأن يعظم ويقدر.

إن الرسالات جاءت لتؤكد هذه الفطرة وترسم لها طريق استقامتها حتى لا تنحرف كما انحرفت من قبل واتجهت إلى عبادة صنم أو وثن تحسب أن له دخلاً في هذا السلطان الكبير[٣].

---

(١) محاسن التأويل. جـ٢ / صـ٩، ١٠ – محمد جمال الدين القاسمي – القاهرة – الطبعة الأولى – نشر إحياء الكتاب العربي.

(٢) تفسير الفاتحة. صـ٣١، ٣٢.

(٣) أصول الدعوة، الدكتور/ أحمد غلوش، صـ٤٦.

حقيقة العبادة التي دعا إليها أنبياء الله أقوامهم.

إن أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم – دعواْ أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١).

فما هو مدلول هذه العبادة التي جاءت على لسان أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم؟!.

وللإجابة على هذا التساؤل نقول وبالله التوفيق:

إن مدلول العبادة التي دعا إليها أنبياء الله ورسله أقوامهم هو أن يصبح النشاط الإنساني كله حركة واحدة متجهة ً إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني التي قال الله تعالى فيها﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢).

العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شئون الخلافة في الأرض.

الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ، هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء يسواء.

---

(١) سورة الأنبياء. آية رقم ٢٥.

(٢) سورة الذاريات. آية رقم ٥٦.

ولقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم "العبادة " نصا بأنها "الاتباع" وليست هي الشعائر التعبدية، وهو يقول لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارى، واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا: بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم...

نعم: إنما أطلقت لفظة "العبادة " على "الشعائر التعبدية " باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون. صورة لا تستغرق مدلول العبادة، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة !..

وهكذا يتبين لنا أن مدلول العبادة التي كلف بها الجن والأنس لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر. فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر؛ والله لا يكلفهم هذا. وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم. وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان. نعرفها من القرآن من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1] فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني، وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض، والتعرف إلى قواها وطاقاتها، وذخائرها ومكنوناتها، وتحقق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها. كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام.

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر؛ وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعا. وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين:

(١) سورة البقرة: من الآية٣٠.

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس. أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً وربا. عبداً يَعبد، وربا يُعبد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله تعالى.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة؛ ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقضاء الله وقدره.. كلها عبادة؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى، جاء لينهض بها فترة طاعة لله وعبادة له لا إرب له هو فيها، ولا غاية له من ورائها، إلا الطاعة، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضىً عن وضعه وعمله، ومن أنس برضى الله عنه، ورعايته له ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً.

هذا.. والعبادات التي دعا إليها الرسل نوعان:

الأول: محدد مقدر مكيف بنص مقدس لا يقبل التغيير والتبديل.

والثاني: ليس كذلك ويدخل في دائرة الأخلاقيات المشتملة على كل ما هو حسن وصالح.

أما عن النوع الأول. فيقول الإمام الغزالي رحمه الله[١]. عنه: إنه محدد مقدر من جهة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يدرك وجهة تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة.

ويقول العقاد عنها: إنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها [٢].

والعبادات المحددة التي هي عادة ما يلتمس أثرها ويطلب سرها كالصوم والصلاة والزكاة والحج، اتفقت دعوة الأنبياء والمرسلين في وضع أصولها للناس حتى يتحقق الانقياد العملي ويظهر الإخلاص لله تعالى بها، وفيما يلي بيان لهذه العبادات:

أولاً: الصلاة.

أخبرنا القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – دعا ربه أن يمكنه هو وذريته من إقامة الصلاة فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة﴾[٣].

وقال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ [٤]. أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها.

ومن الأوصاف التي استحق بها سيدنا إسماعيل – عليه السلام – المدح إقامته للصلاة.

---

(١) المنقذ من الضلال. صـ١٨٥.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. صـ١٠٨.

(٣) سورة إبراهيم. آية رقم ٣٧.

(٤) سورة إبراهيم. آية رقم ٤٠.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾(١).

يقول الحافظ بن كثير(٢): وهذا من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه – عز وجل – آمراً بها لأهله. كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٣).

أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة.

وكذلك حينما كلف موسى – عليه السلام – بالرسالة كان أول ما أُمِرَ به هو الصلاة. حيث قال الله تعالى له: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(٤).

يقول الإمام المراغي(٥) في تفسير هذه الآية: أي إن الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له.

(فَاعْبُدْنِي) أي: وإذا كنت أنا الله حقاً ولا معبود سواي فخصني بالعبادة والتذلل والانقياد في جميع ما كلفتك به.

---

(١) سورة مريم. آيتان رقم ٥٤، ٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٣ / صـ١١٩.

(٣) سورة التحريم. آية رقم ٦.

(٤) سورة طه. آية رقم ١٤.

(٥) تفسير المراغي، الشيخ/ أحمد مصطفى المراغي، جـ١٦ / صـ٩٩، ١٠٠.

(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي) أي: وأد الصلاة على الوجه الذي أمرتك به مقومة الأركان مستوفاة الشرائط، لتذكرني فيها وتدعوني دعاءاً خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجه إلى سواي.

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لما لها من الفضل على سواها، إذ فيها ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذلك، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وأيضاً أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون – عليهما السلام – بالصلاة فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

والصلاة كانت من أول ما نطق بها عيسى – عليه السلام – في المهد إذ قال كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(٢).

وكانت الصلاة من وصايا لقمان لابنه حيث قال كما حكى القرآن الكريم: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(٣).

وهكذا... يتبين لنا أن الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كلفواْ بإقامة الصلاة وبلغواْ هذا التكليف لأقوامهم، وإن هذه الصلوات الواردة على ألسنة الرسل أعمال مكررة في مواعيد ثابتة، تحتاج إلى تدبر وتذكر وخشوع كما يدل على ذلك لفظ " إقامة " الذي أسندت إليه الصلاة.

---

(١) سورة يونس. آية رقم ٨٧.

(٢) سورة مريم. آية رقم ٣١.

(٣) سورة لقمان. آية رقم ١٧.

وكيفية هذه الصلاة من ناحية الإحاطة بها تحتمل رأيين:

الأول: أن يطلع الله كل رسول على كيفية صلاة الأمم السابقة وتفاصيلها وهيئاتها لتبقى معلومة لديه.

الثاني: ألاّ يطلع الله الرسل على التفاصيل وإنما يعرفهم بها في إجمال.

وهذان الرأيان ذكرهما الفخر الرازي[1] عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[2].

كما ذكر الرازي أيضاً في سورة لقمان أن هذه الكيفية للصلاة اختلفت هيئاتها من رسالة إلى رسالة وإن اتحدت في حقيقتها وغرضها.

وسواء كانت كيفية الصلاة معلومة للرسل أو غير معلومة فإنه لا يمنع أن يكون هناك اشتراك في بعض أجزاء هذه الكيفية كالتوجه إلى قبلة وإن اختلفت.

فلقد ثبت إن اليهود كانت تتوجه إلى بيت المقدس كما ثبت من مشاركة النبي ﷺ لهم في هذا التوجه بعد الهجرة واستمر في هذه المشاركة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً حتى أمر بالتحول إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة.

وأيضاً كالركوع والسجود، قال تعالى آمراً إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود﴾[3].

ونادت الملائكة مريم فقالت لها كما حكى القرآن الكريم: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[4].

---

(١) مفاتيح الغيب. جـ٦ / صـ١٨.

(٢) سورة طه من الآية: ١٤.

(٣) سورة البقرة. آية رقم ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران. آية رقم ٤٣.

وداود – عليه السلام – يقول عنه القرآن: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾(١).

وكذلك كتأدية الصلاة في مكان طاهر كالمساجد والبيع والكنائس(٢).

ثانياً: الزكاة.

والزكاة أيضاً جاءت أصولها في الرسالات السماوية السابقة. قال تعالى في شأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٣).

والمعنى: وجعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى، وإلى الخيرات بأمرنا وإذننا (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) أي: وأوحينا إليهم فيما أوحينا أن افعلوا الطاعات واتركوا المحرمات (وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ) أي: وأوحينا إليهم أن أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وقد خصهما بالذكر من بين سائر العبادات لأن الصلاة أشرف العبادات الدينية، والزكاة أفضل العبادات المالية والمال شقيق الروح، ومجموع العبادتين: تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق.

وقال تعالى في صفات إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾(٤).

---

(١) سورة ص. آية رقم ٢٤.

(٢) أصول الدعوة. صـ٥١.

(٣) سورة الأنبياء. آية رقم ٧٣.

(٤) سورة مريم. آيتان رقم ٥٤، ٥٥.

وقال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾(١).

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(٢).

ثالثاً: الصيام.

والصيام معروف في الرسالات السماوية السابقة يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

يقول الحافظ بن كثير(٤) في تفسير هذه الآية:

يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين من هذه الأمة وآمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة حسنة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الغرض أكمل مما فعله أولئك كما يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة. آية رقم ٨٣.

(٢) سورة مريم: آيتان ٣٠ /٣١.

(٣) سورة البقرة. آية رقم ١٨٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم. جـ١ / صـ١٨٦.

(٥) سورة المائدة. آية رقم ٤٨.

ولهذا قال هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين:(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(٢).

ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان.

وقد روى أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام، عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد ولم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح – عليه السلام – إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ....)

قال: نعم والله لقد كتب على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهراً كاملاً وأياماً معدودات عدداً معلوماً. وروى عن السُدِّي نحوه.

وعلى أي من هاتين الروايتين فالصيام كان مفروضاً على المؤمنين من أهل الملل التي كانت قبلنا كما هو مفروض علينا نحن المسلمين بنص القرآن الكريم.

يقول صاحب المنار (٣):

---

(١) سورة البقرة. آية رقم ١٨٣.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) تفسير المنار. جـ٢ / صـ١١٥، ١١٦.

وقد كتب على أهل الملل السابقة فكان ركناً من كل دين، لأنه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب، وفي إعلام الله تعالى لنا بأنه فرضه علينا كما فرضه على الذين من قبلنا إشعار بوحدة الدين، أصوله ومقصده، وتأكيد لأمر هذه الفرضية وترغيب فيها.

رابعاً: الحج.

والحج منذ سيدنا إبراهيم – عليه السلام – معروف للناس بعد أمر الله تعالى له بقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(١).

والمعنى: ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم.

فقال: ناد وعلينا البلاغ.

فقام – عليه السلام – على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على جبل أبي قبيس. وقال: يأيها الناس؛ إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه.

فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شئ سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أن يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك....

هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم(٢).

---

(١) سورة الحج. آية رقم ٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، جـ٤، صـ ٢٠٤.

وما يزال وعد الله يتحقق منذ سيدنا إبراهيم – عليه السلام – إلى اليوم والغد، وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام، وترف إلى رؤيته والطواف به.

الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله، والفقير المعدم الذي لا يجد إلاّ قدمية، وملايين من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبيه لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام.

وبعد: فمما سبق يتبين لنا أن أصول العبادات وإفراد الله سبحانه بهذه العبادات والتوجه إليه وحده بها موجودة في الرسالات السماوية السابقة، وإن كانت صور هذه العبادات وتفصيلاتها وأحكامها قد تختلف من أمة إلى أمة.

وكما سبق من اختلاف كيفية الصلاة فكيفية العبادات على نمطها ويكفي أن نعلم أن الكيفيات التي وضعت فيها العبادات سابقاً كانت تضمن الانقياد لله تعالى والامتثال المطلق في النفس والمال وكافة ما يستطيعه البشر.

والعبادات في الإسلام تتحد مع أصول العبادات عموماً وتقصد أهدافها تماماً، وقد جاءتنا – نحن المسلمين– هذه العبادات مفصلة الهيئات معروفة بدقة من ناحية الوقت والكيفية والمقدار.

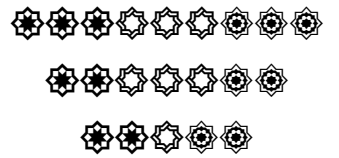

المبحث الخامس

القواسم المشتركة في الرسالات الإلهية في جانب الأخلاق

ومن القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وفيما يلي بيان ذلك:

أولاً: تعريف الأخلاق.

عرف "ابن مسكويه " [1]الخلق بأنه: (حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج.... ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً).

وعرف الغزالي[2] الخلق بأنه: (عبارة عن هيئة في النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية.

فإذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة، المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة هي المصدر خلقاً سيئاً).

ونفهم من هذين التعريفين أموراً منها:

– الخلق حال للنفس، أو هيئة للنفس، أي أنه صفة للجانب النفسي من الإنسان كما أن الخلق – بفتح الخاء– صفة للجانب الجسدي منه.

– هذه الصفة النفسية لا بد أن تكون راسخة، أي ثابته غير عارضة، فهي تمثل عادة لصاحبها تتكرر كلما حنت فرصتها، فالبخيل الذي يتصدق مرة في حياته لا

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. صـ٣١ / طبعة صبيح.

(٢) إحياء علوم الدين. صـ١٤٣٤، طبعة الشعب.

يعتبر كريماً. ــ هذه الصفة النفسية الراسخة الثابتة تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر، أي من غير تكلف، فالشخص الفاجر الذي يتكلف الحياء والعفة ليس حيياً ولا عفيفاً.

– وصدور الأفعال عن هذه الهيئة أو الملكة النفسية يكون من غير فكر ولا روية، أي: من غير تردد ومن غير تأخير عن الوقت المناسب لأن الخلق صار عادة له، يفعله تلقائياً بدون جهد ذهني، وإن كان يعمل عقله في تخير جهته، فالكريم لا يتردد عند العطاء والبذل لكنه يتخير جهة الخير أو نوعه، أو الشخص الذي يمنحه، أو الجهة التي تستحق العطاء فالفكر في توجيه الخير وجهة معينة دون أخرى.

– الخلق منه ما هو طبيعي، أي فطري يولد الإنسان مزوداً به: كالحلم والحب والحياء، كما ورد في حديث أشج عبد القيس: قال لي النبي ﷺ: (إن فيك لخلقين يحبهما الله، قلت: وما هما يا رسول الله ؟ قال: الحلم والحياء. قلت: قديماً كان أو حديثاً ؟ قال: قديماً. قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين أحبهما الله) (١).

وفي رواية: (إن فيك خلقين يحبهما الله: الحلم والأناة. قال: يارسول الله؛ أنا أتخلق بهما، أم الله جبلني عليهما ؟ قال: بل الله جبلك عليهما. قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله)(٢).

ومن الخلق ما هو مكتسب، ينشأ من التعود والتدرب والبيئة كالجبن والشجاعة.

– لفظ " الخلق " يطلق على المحمود، وعلى المذموم، ولذلك يحتاج إلى التحديد والتقييد، فيقال: " خلق محمود " أو " خلق مذموم " مثلاً.

– والخلق تسبقه عمليات نفسية يكون هو الخطوة الأخيرة وبيان ذلك:

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد. / صـ٢٠٥.

(٢) أخرجها أبو داود في كتاب الأدب. باب في قبلة الرجل جـ٥ / صـ٣٩٥.

أول ما يرد على قلب الإنسان الخاطر، وهو حديث النفس، ونفس الإنسان تحدثه بأمور كثيرة، قد يميل إلى أحدها.

فالميل: هو توجه الإنسان لخاطر من خواطره يتصوره، ويدرك الغرض منه، والغاية المترتبة عليه. فإذا تغلب ميل على سائر ميول الإنسان صار هذا الميل رغبة.

فالرغبة: هي تغلب ميل على بقية الميول الموجودة في النفس الإنسانية، فإذا فكر الإنسان في هذه الرغبة ودرسها دراسة واعية، وعزم عليها، صارت هذه الرغبة إرادة.

فالإرادة: هي صفة النفس التي تخصص رغبة من الرغبات التي مالت إليها النفس لكي تتحقق وتوجد، فإذا ما تكررت الإرادة صارت عادة.

فالعادة: هي الإرادة التي تتكرر وتصدر عن حالة راسخة هي الخلق فهذه هي مراحل تكون الخُلق: الخاطر، فالميل، فالرغبة، فالإرادة، فالعادة(١).

ثانياً: دعوة الرسل إلى مكارم الأخلاق.

تعتبر الأخلاق جانباً حيوياً وهاماً في كل رسالة سماوية، ولم تكتف واحدة منها بتصحيح العقائد والشرائع بل وصل اهتمامها بالأخلاق إلى أن المناداة بها ظهر مقترناً بظهور الدعوة وكانت المناداة بالأخلاق ملتصقة بالمناداة بالتوحيد وعبادة الله.

ومن المعروف أن صدق التوحيد وإخلاص العبادة يستتبعان بالضرورة أخلاقاً نقية عالية، والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – خير الناس اصطفاهم الله تعالى لنشر المكارم الأخلاقية وركز في طباعهم السمو النفسي والأخلاقي الذي جعلهم

(١) انظر: تأملات في فلسفة الأخلاق، د. منصور علي رجب، صـ٨٨، ٩٠.

مستعدين للقيام برسالتهم ويحدد الرسول الخاتم ﷺ منزلة الخلق في الرسالات فيقول – عليه السلام –: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [١].

فهو مُتمم لمن سبقه من الرسل، وكأن الهدف من كل رسالة هو نشر جانب أخلاقي ما إلاّ أن الرسالة الخاتمة جاءت متممة لهدف هذه الرسالات بتكميل مكارم الأخلاق كلها [٢].

ولقد كان منهج الرسالات الإلهية في تعليم الأخلاق واضحاً في اتجاهات معينة هي:

١. الدعوة إلى الأخلاق مع بداية الدعوة إلى التوحيد.

لقد بدأ الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – دعوتهم إلى الأخلاق مع بداية الدعوة وذلك حتى يصنعواْ بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهواتها والقلب وهواه ويرسمواْ للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل والصلاح.

وإنما بدأواْ هكذا – كما يقول الاستاذ الدكتور أحمد غلوش [٣]– لأن الإيمان بالله قرين الأخلاق وكلاهما يستلزم خضوعاً وخشوعاً وطاعة مطلقة لله، وتجنب المظالم وإنصاف النفس من كل ما يشينها ويرديها، وكلاهما يستوجب على صاحبه أن يتحلى بالآخر ولا يكمل الآخر إلاّ مع الأول، ولذلك لم يبعث رسولاً إلاّ إلى قوم فسدت أخلاقهم وضلت عقائدهم، وعاثواْ في الأرض فساداً واستكباراً ففي هذا الوقت تعمل الرسالات على إصلاح هذا الحال مع الدعوة إلى الإيمان.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى– تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي– ج ١٠ / ص ١٩١ – دار النشر: مكتبة دار الباز – مكة المكرمة – ١٤١٤ – ١٩٩٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

(٢) أصول الدعوة – الدكتور / أحمد غلوش – ص٥٤ – ط دار البيان.

(٣) نفس المصدر السابق – ص ٥٦ وما بعدها.

فهذا هو سيدنا نوح – عليه السلام – بعث في قوم ضلت عقائدهم وفسدت أخلاقهم وأخذواْ في تلقين ناشئتهم هذه المبادئ الضالة في العقيدة والأخلاق.

يقول الإمام أبو السعود [1]عنهم: إنهم أصرواْ على المعاصي والكفر واستكبرواْ استكباراً شديداً عن الاتباع والطاعة ولوضعهم هذا طلب الرسول منهم أن يعبدواْ الله تعالى ويتركواْ المعاصي.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [2].

وهذا هو سيدنا هود – عليه السلام – دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته وفي نفس الوقت أمرهم بالإقلاع عن المعاصي والاستغفار من الذنوب وعدم الإصرار على الإجرام والظلم.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[3].

لقد دعا هود – عليه السلام – قومه إلى التوبة والاستغفار مع دعوتهم إلى التوحيد لأنهم عتَواْ عتواً كبيراً واستكبرواْ في الأرض بغير الحق.

---

(١) إرشاد العقل السليم، للإمام أبو السعود. جـ٥ / صـ١٩٧.

(٢) سورة نوح. الآيات من ١: ٤.

(٣) سورة هود. الآيات من ٥٠: ٥٢.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(١).

وهذا هو سيدنا صالح – عليه السلام – بعثه الله إلى قومه فطلب منهم أن يعبدواْ الله وحده وينبذواْ فاسد الأخلاق ويتوبواْ إليه جلّ شأنه.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾(٢).

فطلب إليهم أن يوحدوا الله ويعبدوه ويرجعوا عما كانوا يباشرونه من القبائح الأخلاقية.

وهذا هو سيدنا إبراهيم – عليه السلام – وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بوصف جامع كامل لم يصف به غيره من الأنبياء الذين سبقوه، والذين لحقواْ به.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣).

ثم وصفه الله تعالى بالخلة. فقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾(٤).

وهذا هو سيدنا لوط – عليه السلام – يبدأ دعوته بأن يستنكر على قومه مفاسدهم وسوء أخلاقهم، ويطالبهم بالإقلاع عن المنكرات التي ابتدعوها ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين كما يطالبهم بتنقية أخلاقهم.

---

(١) سورة فصلت. آية رقم ١٥.

(٢) سورة هود. آية رقم ٦١.

(٣) سورة النحل. آيتان رقم ١٢٠، ١٢١.

(٤) سورة النساء. آية رقم ١٢٥.

قال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾(١).

وهكذا اتجه لوط – عليه السلام – إلى تعليم قومه الأخلاق قبل دعوتهم إلى التوحيد، ولا عجب في ذلك، فإن الرسل عليهم السلام اهتموا جميعا بالأخلاق في دعوة أقوامهم.

وهذا هو سيدنا إسماعيل – عليه السلام – يصفه الله تعالى بقوله:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾(٢).

يقول الحافظ بن كثير (٣) في تفسير هذه الآية: إنما قيل له صادق الوعد لأنه قال لأبيه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(٤). فصدق في ذلك، فصدْق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خُلْفَه من الصفات الذمية.

وهذا هو سيدنا شعيب – عليه السلام – بعثه الله إلى قومه فدعاهم إلى التوحيد واستقامة الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا

(١) سورة الأعراف. الآيات من ٨٠: ٨٤.
(٢) سورة مريم. آيتان رقم ٥٤، ٥٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم. جـ٣ / صـ٣١٩.
(٤) سورة الصافات. آية رقم ١٠٢.

تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(١).

وهكذا... نراه – عليه السلام – قد بدأ دعوته بإصلاح العقيدة وقفّى عليها بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعواْ، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا، وأن يبتعدواْ عن كل إفساداتهم بعد ذلك، جاء في كتاب (دعوة الرسل): أن المراد بالبخس " النقص "، والأشياء أعم من المكيل والموزون كالمواشي والمعدودات ويشمل البخس في المساومة والغش والحبك، والإفساد في الأرض يتضمن أكل أموال الناس بالباطل البغي والعدوان على الأنفس والأراضي وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وقد نهاهم شعيب عن كل هذا، وختم قوله لهم بقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وكأن مقتضى الإيمان يستلزم التمسك بالطيب الحلال والبعد عن الخبيث الحرام(٢).

وهكذا.... جمع شعيب – عليه السلام – في أول دعوته بين المناداة بالتوحيد والمناداة بمكارم الأخلاق شأن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وهذا هو سيدنا موسى – عليه السلام – يقرن الدعوة إلى مكارم الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد فنراه يقول لفرعون كما حكى القرآن الكريم: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف. آيتان رقم ٨٥، ٨٦.

(٢) دعوة الرسل، الشيخ/ محمد أحمد العدوي، صـ١٥٥ وما بعدها بتصرف.

(٣) سورة النازعات. آيتان رقم ١٨، ١٩.

فقد بين له أن الهدف هو أن يتطهر من دنس الكفر والطغيان عن طريق خشية الله، وقد خاطبه بأسلوب الاستفهام ليستدعيه بالتلطف في القول ويستنزله بالمداراة من عتوه[١]، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[٢].

وهاهم سحرة فرعون لمّا منّ الله عليهم بالإيمان قالواْ لفرعون: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾[٣].

وهذا هو سيدنا عيسى – عليه السلام – قد جاءت الدعوة إلى مكارم الأخلاق على لسانه وهو في المهد، فقال بعد أن ذكر طاعة ربه: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[٤]. ولما سأله أحد الفريسين قائلاً: (يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس ؟ فقال له يسوع: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى العظمى، والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك فبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء)[٥]، وهكذا دعاهم إلى الله ومكارم الأخلاق.

ومن وصايا لقمان لابنه في الدعوة إلى مكارم الأخلاق قوله كما حكاه لنا القرآن الكريم: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، الإمام أبي السعود، ج٩، ص٩٩، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(٢) سورة طه. آية رقم ٤٤.
(٣) سورة طه. الآيات من ٧٤: ٧٦.
(٤) سورة مريم. آية رقم ٣٢.
(٥) إنجيل متى. الإصحاح الثاني والعشرين / الفقرات من ٣٦: ٤١.

مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾(١).

هذا... ولما ختم الله تعالى الرسالات السماوية برسالة الإسلام فقد عنيت هي الأخرى بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، وقد ضمت آيات كثيرة وأحاديث غفيرة، الدعوة إلى التوحيد ومكارم الأخلاق معاً، وجاءت أمراً إلى الأمة الإسلامية من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣)، فهذه الآيات القرآنية وغيرها كثيرة. تأمر بمكارم الأخلاق وتنهى عن مساوئها.

وقد جاءت في القرآن الكريم سورة جليلة تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدينة الفاضلة حتى سماها بعض المفسرين: " سورة الأخلاق " ألا وهي سورة الحجرات.

---

(١) سورة لقمان. الآيات من ١٧: ١٩.

(٢) سورة الأنعام. الآيات من ١٥١: ١٥٣.

(٣) سورة النحل. آية رقم ٩٠.

وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: (إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها) [١].

وقوله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) [٢].

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق) [٣].

يقول الشيخ الغزالي [٤] معلقاً على هذا الحديث: كأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مد شعاعها، وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعواْ إليها على بصيرة.

هذا.... وإن العبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوساً مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها. كلا... كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل مستمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف.

والقرآن الكريم، والسنة المطهرة يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق.

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) سنن البيهقي الكبرى– تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي– ج ١٠ / ص ١٩١.

(٣) رواه مسلم.

(٤) خلق المسلم. صـ٥ وما بعدها، بتصرف.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(١).

فالإبعاد عن الرذائل والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة.

وقد جاء في حديث يرويه النبي عن ربه: " إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي. ولم يبت مصرّاً على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب" (٢).

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هي – أولاً – غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

وقد نص القرآن الكريم على الغاية من إخراج الزكاة بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(٣).

فتنظيف النفس من أدران النقص والتسامي بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى.

ومن أجل ذلك وسع النبي ﷺ في دلالة كلمة الصدقة التي ينبغي أن يبذلها المسلم فقال: (تبسمك في وجه أخيك صدقه، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقه، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقه، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة، وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة)(٤).

---

(١) سورة العنكبوت. آية رقم ٢٥.

(٢) رواه البزار.

(٣) سورة التوبة. آية رقم ١٠٣.

(٤) رواه البخاري.

وهذه التعاليم في البيئة الصحراوية التي عاشت دهوراً على التخاصم والتراشق تشير إلى الأهداف التي رسمها الإسلام، وقاد العرب في الجاهلية المظلمة إليها.

وكذلك شرع الإسلام الصوم، فلم ينظر على أنه حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة بل اعتبره خطوة إلى حرمان النفس دائماً من شهواتها المخطورة ونزواتها المنكورة.

وإقراراً لهذا المعنى قال الرسول ﷺ: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[1].

وقال ﷺ: (ليس الصيام من الأكل والشرب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم)[2].

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3].

وقد يحسب الإنسان أن السفر إلى البقاع المقدسة الذي كلف به المستطيع واعتبر من فرائض الإسلام على بعض أتباعه يحسب الإنسان هذا السفر رحلة مجردة عن المعاني الخلقية، ومثالاً لما قد تحتويه الأديان أحياناً من تعبدات غيبية، وهذا خطأ، إذ يقول الله تعالى في الحديث عن هذه الشعيرة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[4].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن أبي خزيمة.

(٣) سورة البقرة. آية رقم ١٨٣.

(٤) سورة البقرة. آية رقم ١٩٧.

هذا العرض المجمل لبعض العبادات التي اشتهر بها الإسلام وعُرفت على أنها أركانه الأصلية، تستبين منه متانة الأواصر التي تربط الدين بالخلق.

إنها عبادات متباينة في جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقي عند الغاية التي رسمها الرسول في قوله ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (١).

فالصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهير الذي يصون الحياة ويعلى شأنها، ولهذه السجايا الكريمة التي ترتبط بها أو تنشأ عنها أعطيت منزلة كبيرة في دين الله.

فإذا لم يستفد المرء منها بما يزكي قلبه وينقي لبه ! ويهذب بالله والناس صلته فقد هوى.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾(٢).

٢. الدعوة إلى الأخلاق بالقدوة.

كان الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – في دعوتهم إلى الأخلاق يبدون صورة عمليه لما يدعون إليه، ولذلك امتازواْ بالأخلاق الفاضلة.

يقول صاحب الجوهرة (٣):

وواجب في حقهم الأمانة *** وصدقهم وضف له الفطانة

---

(١) سنن البيهقي الكبرى– تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي– ج ١٠ / ص ١٩١.

(٢) سورة طه. الآيات من ٧٤: ٧٦.

(٣) شرح البيجوري على الجوهرة. صـ١٤٨.

ومثل ذا تبليغهم لما أتواْ *** ويستحيل ضدها كما رووا

ومعنى هذا أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – واجب في حقهم الأمانة وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى، فهم محفوظون ظاهراً من الزنى وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر.

ومحفوظون باطناً من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد غلوش[1]: فالأمانة وهي من أمهات الأخلاق قد اتصف بها جميع الأنبياء قبل بعثتهم وبعدها وظهرت معهم كلازمة من لوازم حياتهم واشتهرواْ بها بين أقوامهم، ولذلك رأيناهم – صلوات الله وسلامه عليهم – حينما يقابلهم الناس بالتكذيب والإيذاء يذكرون لهم ما عرفوا به لديهم من أمانة واضحة قبل الرسالة وهي معهم بعد الرسالة بالضرورة، ولذلك قال كل رسول لقومه: (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)[2]. أي: إني رسول من الله إليكم أمين في ما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها[3].

وكما وجب في حقهم – صلوات الله وسلامه عليهم – الأمانة، وجب في حقهم الصدق وهو مطابقة خبرهم للواقع.

ومن أجل تأكيد صدقهم أتتهم المعجزات الخارقة لتكون دليل صدق على البلاغ.

يقول صاحب المواقف: أجمع أهل الملل والشرائع على عصمة الأنبياء من تعمد الكذب فيما دل على صدقهم فيه كدعوى الرسالة فيما يبلغونه عن الله، ولا بد من صدقهم في هذا لئلا تبطل الرسالة، إذ لو جاز كذب النبي في الأحكام التبليغية لبطل

(١) أصول الدعوة، ص٦٤ بتصرف.

(٢) سورة الشعراء. آية رقم ١٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم. جـ٣ / صـ٣٢٠.

دلالة المعجزة على صدقه فيما أتى به من الله مع أن دلالة المعجزة على صدقه دلالة عادية قطعية [١].

ولقد مدح القرآن الكريم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم بخلق الصدق، فقال تعالى: فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[٢].

وأثنى الله –عز وجل– على إسماعيل –عليه السلام–، فقال تعالى: وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾[٣].

وَوُصِفَ يوسف عليه السلام بالصدق حينما جاءه الرجل يستفتيه فقال:﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾[٤].

وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[٦].

قال السعدي في تفسير قوله: وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ؛ (أي: في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق وَصَدَّقَ بِهِ أي: بالصدق؛ لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى

(١) شرح المواقف، الإمام/ عضد الدين الإيجي، جـ٣ / صـ٢٠٤.
(٢) سورة مريم، الآية رقم ٤١.
(٣) سورة مريم، الآية رقم ٥٤.
(٤) سورة يوسف، الآية رقم ٤٦.
(٥) سورة الإسراء، الآية رقم ٨٠.
(٦) سورة الزمر، الآية رقم٣٣.

به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره)[١].

وأما قول صاحب الجوهرة[٢]: " وضف له الفطانة ".

أي: وضم لما تقدم مما يجب لهم – صلوات الله عليهم – الفطانة وهي: التفطن والتيقظ لإلزام الخصوم وإبطال دعاويهم الباطلة.

والدليل على وجوب الفطانة لهم – عليهم السلام – آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

والإشارة عائدة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾[٤]. إلى قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٥].

وكقوله تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [٦]، أي: خاصمتنا فأطلت جدالنا وأتيت بأنواعه.

وكقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٧]. أي بالطريقة التي هي أحسن بحيث تشتمل على نوع إرفاق بهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام السعدي، ج١/ص٧٢٤، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م

(٢) شرح البيجوري على الجوهرة، ص١٥٠.

(٣) سورة الأنعام. آية رقم ٨٣.

(٤) سورة الأنعام. آية رقم ٧٦.

(٥) سورة الأنعام. آية رقم ٨٢.

(٦) سورة هود. آية رقم ٣٢.

(٧) سورة النحل. آية رقم ١٢٥.

ولا يقال هذه الآيات ليست واردة إلاّ في بعضهم. فلا تدل على ثبوت الفطانة لجميعهم لأنّا نقول: ما ثبت لبعضهم من الكمال يثبت لغيره فتثبت الفطانة لجميعهم أنبياء ومرسلين.

وأما قول صاحب الجوهرة[١]: "ومثل ذا تبليغهم" أي: ومثل الواجب المتقدم تبليغهم "لما أتواْ" أي جاؤوا به عن الله تعالى.

والدليل على وجوب تبليغهم عليهم الصلاة والسلام: أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، واللازم باطل، لأن كاتم العلم ملعون.

وأما قوله: " ويستحيل ضدها ". أي: ويستحيل في حقهم – عليهم السلام – ضد هذه الصفات الأربعة الواجبة في حقهم، فضدّ الأمانة الخيانة، وضد الصدق الكذب، وضد الفطانة الغفلة وعدم الفطنة، وضد التبليغ كتمان شئ ما أُمِرواْ بتبليغه، ومعنى استحالتها عدم قبولها الثبوت لما رواه العلماء من كتاب وسنة وإجماع.

وهكذا... يتبين لنا أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – قد جمعواْ مكارم الأخلاق، فهذه الصفات الأربع هي أمهات الأخلاق، فلما جاء خاتمهم ﷺ تممها وقال: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[٢].

٣. محاربة الفساد المتفشي في البيئات.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد غلوش[٣]: قامت الدعوات السماوية لإصلاح الفساد في جميع الجوانب وبكافة الصور إلاّ أنها كانت تركز على الفساد المتفشي في البيئة

---

(١) شرح البيجوري على الجوهرة، ص١٥١ بتصرف.

(٢) سنن البيهقي الكبرى– تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي– ج ١٠ / ص ١٩١.

(٣) أصول الدعوة. صـ٧٠، ٧١.

التي بعث فيها الرسول، ولعل أخطر فساد تفشى في البيئات كلها وأخذ صبغة مشابهة هو أن فكر الإنسان وخضوعه أمام إله لا ينفع ولا يضر.

ورغم أن نظرة الأقوام إلى الأصنام مرتبطة بعقائدهم إلاّ أن اتصالها بالأخلاق هام وخطير، ذلك لأنها لم تقدم قيماً ولم تأمر بتصحيح خطأ، فبرزت سيئاتها في أخلاقهم بوضوح، ولذلك جاهد الرسل لنبذ هذه النظرة العقائدية أولاً والمتجهة إلى إفساد الأخلاق ثانياً.

ومن الأخطاء التي ركز الرسل على بيانها وأبرزها القرآن الكريم على سبيل المثال: ما كان من قوم شعيب، حيث كانواْ يطففون الكيل والميزان فإذا اكتالواْ على الناس يستوفون، وإن أعطواْ يخسرون، فأتاهم شعيب لإصلاح هذا الخطأ وقال لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(١).

ومثل هذا النداء تكرر في قصص القرآن الكريم من شعيب عليه السلام.

ومنها كذلك ما كان من قوم لوط حيث كانواْ يأتون الذكران من العالمين ويتركون ما أحل الله لهم من النساء، وقد تفشى فيهم هذا الداء لدرجة أنهم كانواْ يأتونه على أعين الناس من غير استحياء مع أنهم لم يسبقواْ بمثله فقال لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾(٢).

وقد تكررت تفاصيل فاحشة قوم لوط في كل المواضع التي ذكر القرآن الكريم فيها قصتهم.

---

(١) سورة هود. آية رقم ٨٥.

(٢) سورة الأعراف. آيتان رقم ٨٠، ٨١.

ومنها ما كان من فرعون من ظلم وطغيان حيث ادعى أنه رب الناس وقد استولى على جميع البلاد وقال للناس: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾(١).

ووصل به طغيانه إلى أن استعبد بني إسرائيل في مصر وأصدر أمره بقتل جميع ذكورهم وترك نسائهم ولذلك جاءه موسى – عليه السلام – ومعه هارون لتصحيح هذه المفاسد ولوضع نهاية لمظالمه، وكان ما كان إلى أن هاجر بنواْ إسرائيل إلى الشام ومعهم موسى وهارون وغرق فرعون وجنوده وماتواْ جميعاً في عذاب أليم.

ومع التركيز على إبطال المفاسد الرئيسية الموجودة لم يهمل الرسل أي جانب في بيئتهم فكانواْ يشجعون الصالح ويحاولون منع سائر المفاسد الضارة بالمجتمعات إلى أن جاء سيدنا محمد ﷺ وقد اكتملت الإنسانية عقلياً فوضع الإسلام المناهج الأخلاقية الشاملة لكل نواحي الحياة، لا في البيئة العربية وحدها وإنما في سائر البيئات.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٣).

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر

(١) سورة الزخرف ٠ آية رقم ٥١.
(٢) سورة المائدة. الآية رقم ٣.
(٣) سورة النحل. الآية رقم ٩٠.

كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه.

وقال سعيد بن جبير عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها(١).

٤. بيان عاقبة الأخلاق.

تعدّ الأخلاق الأساس المتين الذي تقوم عليه الأمم، فهي المؤشر على استمرار أمة ما أو انهيارها، فبقدر ما تسمو أخلاق الأمة تعلو حضارتها وتزدهر وتتقدم، وبقدر ما تندحر أخلاقها وتضيع قيم الفضيلة فيها، تهوي حضارتها وتنحسر وتذهب هيبتها بين الأمم.

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي(٢):

"إنما الأمم الأخلاقُ ما بَقِيَت فإن همو ذهبت أخلاقُهم ذهبوا"

إن هذا البيت يُمَثِّلُ خلاصة لسُنّة كونية من سُنَن التعاقب الحضاري على سيادة هذه الأرض، أو كما يُسَمِيه الفلاسفة المعاصرون: تفسير التاريخ، فأحمد شوقي بهذا البيت يلخص التفسير الأخلاقي لبقاء الحضارات وانحسارها، فهو يرى أن الأمة بالمفهوم الأعم لها تبقى ما بقيت أخلاقها، وتذهب حين تذهب هذه الأخلاق، وهو رأي صحيح في فهم التاريخ يصدقه القرآن الكريم في أكثر من آية من كتاب الله – عزَّ وجلَّ– الذي يُعَبِّر عن الالتزام بالأخلاق بتعبيرات أدق وأكثر نفعا للإنسان، ومنها مصطلح التقوى، ويعبِّر عن الانحدار الأخلاقي بمصطلح أوسع وهو التكذيب،

(١) تفسير المراغي، جـ ١٤، صـ ١٣٠، ١٣١ بتصرف.

(٢) الشوقيات – ص ٢١.

فيقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١)، فذهاب الأمم هو ما تُعَبِّرُ عنه الآية بالأخذ، وتُعَبِّرُ عنه آية أخرى بالإصابة.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾(٢).

وهناك آيات أخرى تُعَبِّر عن الأخلاق بالصلاح والإصلاح، وتعبُّر عن ذهاب الأخلاق بالفساد والإفساد والظلم.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(٣)، إذن فذهاب القرون الخالية هو بسبب استمرائهم للفساد وعدم نهيهم عنه، وأنهم لم يبق لهم أثر بسبب ذلك الظلم الذي ساقهم إليه التمادي في اتباع سُبُل الإتراف، وأن هلاك القرى لا يمكن أن يكون مع الإصلاح.

فإذا كان الإصلاح يدفع الله به الإهلاك عن أهل القرى والإفساد يُوقِعُهم فيه، فمن باب أولى أن تسري السنةُ نفسُها في الأمة الأعظم في مدلولها من حيث العدد والمكانة.

كما توجد آيات أُخَرى تُعَبِّر عن زوال الأخلاق بالفسوق، وتُرتِّب عليه النتيجة نفسها، وهي الإهلاك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية رقم ٩٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية رقم ١٠٠.

(٣) سورة هود، الآيتان ١١٦ – ١١٧.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(١).

وهذه الآية تنقلنا بشكل مباشر من الحديث عن السُّنّة الكونية، أو ما يُسميه الفلاسفة المعاصرون: تفسير التاريخ، إلى الحديث عن الأسباب المباشرة التي تكون عادةً وراء نُقْلَة المجتمع حسب التعبير المعاصر، أو الأمة والقرن والقرية حسب التعبير القرآني، من مُعْتَنِقَة للأخلاق عاملةٍ بها إلى كافرةٍ بالأخلاق مُتَخلّيةٍ عنها.

فهذه الآية تُشير إلى أحد الأسباب في هذا الانتقال، وهو الترف المؤدي إلى الإلقاء جانبًا بالأخلاق ومقتضياتها، والمراد بالمُتْرَفِين: المُنَعَّمون، وذلك لأن فيض النعمة على العبد كثيرًا ما يحمله على التساهل في أمر الله تعالى ونهيه، ويُصيبُه بشيء من الكبر الحامل على قلة الخشية من الله وضعف الورع عن محرماته، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(٢).

كما أن المُنَعَّمِين هم غالب المتبوعون للناس في أخلاقهم وعوائدهم، فإذا فَسَدُوا أو فَسَقُوا حملوا المجتمعات على ذلك دون أمر منهم، ولكن بالانقياد الطّبعِي للناس إلى ما عليه كبراؤهم، وهذا المعنى، أي: تعليق الانحراف بالترف ليس عابرًا في القرآن، بل مؤكد في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء، الآية رقم ١٦.

(٢) سورة العلق، الآيتان ٦ – ٧.

(٣) سورة هود، الآية رقم ١١٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان ١٢ – ١٣.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾[1]، فالقرآن يؤكد غير مرة أن الترف سبب مباشر لانحراف المجتمعات الأخلاقي[2].

اعتراض.. وجوابه:

تبين لنا مما سبق أن المحافظة على أخلاق الأمة هي محافظة على بقائها ونجاتها من عقوبة الأخذ، لكن وجود أمم قد أضاعت أخلاقها دون أن تُصَاب بعقوبة الأخذ هذه قد يُحْدِثُ فتنةً لدى النفوس الضعيفة، فتحتج بمثل هذه الأمم على التهوين من خطورة التهاون مع ما يُطْلَقُ عليه زورًا الانفتاح الأخلاقي.

لكن الأمر قد حَسَمه القرآن الكريم حين قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[3].

فالسُّنَّةُ الكونيَّة قد تَتَأَخَّر، لكنَّها لا تَتَخَلَّف؛ لذلك حذّر الله من الاغترار بتأخُّر السنة الكونية في الإهلاك بزوال الأخلاق، فقال تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[4].

فسنة الله لا تتبدل؛ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[5].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية رقم ٣٣.

(٢) أثر الأخلاق في بقاء الأمم –محمد بن إبراهيم السعيدي – موقع قصة الإسلام على شبكة الأنترنت بتصرف.

(٣) سورة آل عمران، الآية رقم ١٧٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية رقم ٤٤.

(٥) سورة الأحزاب، الآية رقم ٦٢.

هذا... وإن الناظر إلى الأمم الحضارات البائدة سواء في العصور القديمة أو الحديثة يرى أن السبب الرئيس لانهيارها يرجع إلى انهيار أخلاق أفرادها، وهذا ما قرره الله تعالى في كتابه عندما حدثنا عن الأمم السابقة.

قال تعالى في بيان شأن المكذبين من الأمم السابقة: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

أي: "فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح، وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم: كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى اصر عليها دون أن يرجع عنها.

{ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } أى: فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصباء فأهلكته.

قال القرطبى: قوله: { فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً } يعنى قوم لوط. والحاصب ريح يأتى بالحصباء، وهى الحصى الصغار. وتستعمل فى كل عذاب.

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة } كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب – عليهما السلام –.

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض } وهو قارون.

{ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا } كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه.

{ وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ } أى: وما كان الله – تعالى – مريدا لظلمهم، لأنه – سبحانه – اقتضت رمته وحكمته، أن لا يعذب أحدا بدون ذنب ارتكبه.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية رقم ٤٠.

{ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } أى: ما ظلم الله – تعالى – هؤلاء المهلكين، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وعرضوها للدمار، بسبب إصرارهم على كفرهم، واتباعهم للهوى والشيطان.

وبذلك نرى الآيات قد قصت على النسا مصارع الغاربين، الذين كذبوا الرسل، وحاربوا دعوة الحق، ليكون فى هذا القصص عبرة للمعتبرين، وذكرى للمتذكرين "[1].

(١) التفسير الوسيط، للإمام الأكبر الأستاذ الدكتور سيد طنطاوي، ص٣٣١٣.

المبحث السادس

تنوع الشرائع واختلافها في الرسالات الإلهية

بعد أن وقفنا فيما سبق على القواسم المشتركة في دعوة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأقمنا الأدلة على ذلك، يحسن بنا أن نبين أن شرائعهم عليهم الصلاة والسلام كانت مختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له سبحانه وتعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾(١).

أي: لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها ومنهاجاً وطريقاً فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاح سرائرهم، مِنْ قِبَلِ أن الشرائع العملية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وطبائع البشر، واستعداداتهم وإن اتفق الرسل جميعاً في أصل الدين، وهو توحيد الله والإخلاص له في السر والعلن وإسلام الوجه له سبحانه وتعالى.

روي عن قتادة أنه قال في تفسيرها: أي سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، كي يعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولكن الدين الذي لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص الذي جاءت به الرسل؛ وقد روي عنه انه قال: الدين واحد والشريعة مختلفة.

---

(١) سورة المائدة آية ٨٤.

ومن هذا يفهم أن الشريعة هي الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل وينسخ اللاحق منها السابق وأن الدين هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء[١].

يقول الدكتور جمعة الخولي[٢] مبيناً ذلك:

إذا كانت دعوات الأنبياء قد اتحدت في مبادئها واتفقت في قواعدها، إلاّ أن الشرائع تختلف من أمة لأخرى.

ذلك أن ظروف الناس وأحوالهم الاجتماعية تختلف باختلاف الأعصار، كذلك إدراك الناس وتحملهم للتكاليف، واستعدادهم النفسي لذلك يتفاوت قدره من عصر لعصر. فكان من حكمة الله سبحانه أن تتنوع الشرائع وتتفاوت الأحكام، تبعاً لذلك فيكون تشديدٌ هنا وتخفيف هناك، وقد يجب في هذه الشريعة مالا يجب في تلك.. كما قد يكون في بعضها آصار لأسباب اقتضت ذلك كما حدث مع بني إسرائيل لما أسفواْ وعصواْ ربهم شدد الله عليهم في التشريع من جراء مسلكهم.

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[٤].

---

(١) تفسير المراغي. جـ٦ / صـ١٣٠.

(٢) تاريخ الدعوة. جـ١ / صـ٤٧.

(٣) سورة النساء. آية رقم ١٦١.

(٤) سورة الأنعام. آية رقم ١٤٦.

وإذا كانت الشرائع تختلف باختلاف الأمم إلاّ أنها جاءت تامة وافية في الرسالة الخاتمة، لأنها الدين الذي ارتضاه الله للبشرية عامة وإلى قيام الساعة فأكمله من جميع المعاني، وجعله صالحاً لكل الناس منتظماً لمصالحهم في المعاش والمعاد، فما كان مناسباً لكل الأعصار والأمصار جاء فيه بالقول الواضح المفصل، وما كان يختلف من عصر لعصر جاء فيه بالقواعد الكلية والقضايا العامة، وترك التفصيلات الجزئية للمسلمين حسبما يناسب ظروفهم في ضوء القواعد الكلية للتشريع.

صور من تنوع الشرائع:

يقول الإمام الدهلوي [1]: " اعلم أنه إنما اختلفت شرائع الأنبياء عليهم السلام لأسباب ومصالح، وذلك أن شعائر الله إنما كانت شعائر لمعدات وأن المقادير يلاحظ في شرعها حال المكلفين، فلما كانت أمزجة قوم نوح – عليه السلام – في غاية القوة والشدة كما نبه عليه الحق تعالى استوجبواْ أن يؤمرواْ بدوام الصيام ليقاوم سورة بهيمتهم.

ولما كانت أمزجة هذه الأمة ضعيفة نهواْ عن ذلك، وكذلك لم يجعل الله تعالى الغنائم حلالاً للأولين وأحلها لنا... وعلل ذلك بوجهين:

أحدهما: أن الله تعالى رأى ضعفنا فأحلها لنا.

وثانيهما: أن ذلك من تفضيل الله لنبينا ﷺ على سائر الأنبياء وأمته على سائر الأمم....

وتحقيق ذلك أن الأنبياء قبل النبي ﷺ كانواْ يبعثون إلى أقوامهم خاصة وهم محصورون؛ فيأتي الجهاد معهم في سنة أو سنتين ونحو ذلك، وكانت أممهم أقوياء يقدرون على الجمع بين الجهاد والتسبب بمثل الفلاحة والتجارة فلم يكن لهم حاجة إلى الغنائم فأراد الله تعالى ألا يخلط بعملهم غرض دنيوي ليكون أتم لأجورهم،

(١) حجة الله البالغة. جـ١ / صـ٢٦١ وما بعدها بتصرف.

وبعث نبينا ﷺ إلى كافة الناس وهم غير محصورين، ولا كان زمان الجهاد معهم محصوراً، وكانواْ لا يستطيعون الجمع بين الجهاد والتسبب بمثل الفلاحة والتجارة فكان لهم حاجة إلى إباحة الغنائم... وكان الغضب أيضاً متوجهاً إلى أعدائهم توجهاً عظيماً فأوجب ذلك زوال عصمة أموالهم ودمائهم.. وأوجب إغاظة قلوبهم بالتصرف في أموالهم.... فلذلك نزل القرآن بإباحة الغنائم لهذه الأمة" (١).

ومن صور اختلاف الشرائع أيضاً موضوع الجمع بين الأختين في الزواج، فقد كان ذلك سائغاً من قبل.

وقد ضرب ولي الله الدهولي أمثلة أخرى لاختلاف الشرائع بين الأمم مثل أن الاستقبال في الصلاة كان في شريعة موسى – عليه السلام – إلى بيت المقدس وفي شريعة نبينا ﷺ إلى الكعبة، وكان في شريعة موسى – عليه السلام – الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وكان في شريعة موسى – عليه السلام – القصاص فقط، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية (٢).

ونزيد أيضاً بأن الشريعة اليهودية إذا كانت قد جاءت بالقصاص فقط في عقوبة القتل العمد، فقد جاءت الشريعة الإسلامية تخير ولي الدم بين القصاص والعفو، وكان هذا أمراً وسطاً يساير الطبائع الهينة اللينة التي تميل إلى العفو والتسامح، ومنهم أصحاب الطبائع الشديدة التي لا تحب التنازل عن رأيها أو حقها، فجاءت شريعة الإسلام بالتوسط والاعتدال، وبما يساير طبيعة هؤلاء وألائك وتلمح آثار هذه الوسطية في شعائر الإسلام وشرائعه دائماً، وهذا ما يليق بها بوصفها رسالة عالمية خالدة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(٣).

---

(١) حجة الله البالغة. جـ١ / صـ١٢٤ بتصرف.

(٢) نفس المصدر. جـ١ / صـ٨٧.

(٣) سورة البقرة. آية رقم ١٤٣.

الخـــاتـــمـــة

في ختام هذه الدراسة عن القواسم المشتركة فـــي دعـــوة الأنبيـــاء والمرســـلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أقوم بسرد النتائج التي انتهيت إليها مـــن خـــلال هذا البحث والتي تتمثل فيمـــا يلي:

* أن الإسلام دعوة كل الرسل وعنوان على الدين المشترك الذي دعا إليه جميـــع الأنبياء وانتسب إليه أتباعهم قال تعالى: " إن الدين عند الله الإسلام ".

* أن الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية تضافرت على اتحاد أصول الرسالات الإلهية وذلك لوحدة مصدرها (كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم).

* أن التوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس لا تبـــديل فيـــه و لا تحويل وأن أنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم – قد بذلواْ في ســـبيله كـــل وقتهم وخاطرواْ بمهجهم وأرواحهم.

* أن الإيمان باليوم الآخر هو رأس كل عقيدة وأساس كل إيمـــان، وعليـــه مـــدار استقامة الإنسان وصلاح خلقه وطهارة روحه وبدنه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره.

* أن الإيمان باليوم الآخر يجعل لحياة الإنسان غاية سامية وهدفاً أعلى، هذه الغاية هي فعل الخيرات وترك المنكرات والتحلي بالفضائل والتخلـــي عـــن الرذائـــل الضارة بالأبدان والأديان والأعراض والعقول والأمـــوال أي: تحقيـــق معنـــى الخلافة.

* أن الإيمان بأنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم دون تفرقة بينهم أصـــل من أصول الدعوة في الرسالات الإلهية، ولقد اعتبر الإسلام الإيمـــان بـــبعض

الأنبياء دون بعض خروجاً عن دين الله وهديه، وأن من كفر بنبي أو سب أحداً من النبيين الذين نص عليهم القرآن فهو غير مؤمن بما أنزل على محمد ﷺ.

* أن من أركان الدعوة في رسالات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الإيمان بالملائكة، وذلك لأنه أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر، فمن أنكرها أنكر كل ذلك، لأن ملك الوحي هو الذي يفيض العلم بإذن الله على النبي بأمور الدين كما قال تعالى: (تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) (١).

* أن الإيمان بالكتب السماوية التي أوحى الله بها إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم من أصول الدعوة في الرسالات الإلهية فلله سبحانه وتعالى تعاليم ووصايا أوحاها إلى رسله وأنبيائه، منها ما دون في كتب ومنها مالا علم لنا به، فلكل نبي رسالة بلغها قومه.

* أن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره من أركان الدعوة في رسالات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وقد تأسست هذه العقيدة على الإيمان بالله عز وجل وبنيت على المعرفة الصحيحة لذات الله العليا وأسمائه الحسنى وصفاته العظمى.

* أن أصول العبادات وإفراد الله بهذه العبادات والتوجه إليه وحده بها موجود في جميع الرسالات السماوية السابقة، وإن كانت صور هذه العبادات وتفصيلاتها وأحكامها قد تختلف من أمة إلى أمة.

* أن الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – بدأواْ دعوتهم إلى الأخلاق مع بداية الدعوة إلى التوحيد، وذلك حتى يصنعواْ بالأخلاق حاجزاً بين النفس وشهواتها

(١) سورة القدر الآية رقم: ٤.

والقلب وهواه، ويرسموا للإنسانية طريقاً مليئاً بالفضائل والصلاح وأنهم – عليهم الصلاة والسلام – كانوا قدوة عملية لما يدعون إليه.

* أن الشرائع السماوية تختلف من أمة إلى أخرى، وذلك تبعاً لإختلاف ظروف الناس وأحوالهم الاجتماعية التي تختلف باختلاف الأعصار.

هذا... والله سبحانه وتعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

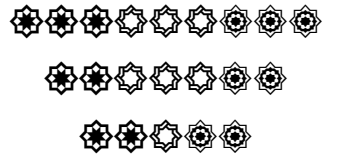

أهم المراجـــع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الكتاب المقدس.

ثالثاً: كتب التفاسير.

١- إرشاد العقل السليم ــ الإمام أبو السعود ــ ط. الحلبي.

٢- أيسر التفاسير-أبو بكر الجزائري – ط مكتبة العلوم والحكم

٣- تفسير القرآن العظيم – ابن كثير – المكتبة العصرية، و مكتبة العبيكان.

٥- تفسير الكشاف – الإمام الزمخشري – دار المعرفة – بيروت.

٦- تفسير المراغي -أحمد مصطفى المراغي – دار إحياء التراث العربي.

٧- تفسير المنار – للإمام / محمد عبده – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨- الجامع لأحكام القرآن ــ الإمام القرطبي ــ ط دار الشعب.

٩- صفوة التفاسير – محمد علي الصابوني – طبعة السعودية.

١٠- مفاتيح الغيب – الإمام الفخر الرازي – ط. دار الفكر.

١١- مختصر تفسير ابن كثير. للشيخ الصابوني – ط دار التراث العربي القاهرة.

رابعاً: كتب الحديث.

١٢- صحيح البخاري – الإمام البخاري – دار الكتب العلمية بيـــروت، ودار ابـــن كثير.

١٣- صحيح مسلم بشرح النووي – الإمام مسلم – طبعة المطبعة المصرية ومكتبة الإيمان.

١٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - الحافظ ابن حجر العسقلاني - مكتبة الكليات الأزهرية.

١٥- مسند الإمام أحمد - الإمام أحمد - المكتب الإسلامي - بيروت. ومؤسسة قرطبة.

١٦- سنن أبي داود ــ الإمام أبي داود ــ دار إحياء التراث العربي.

١٧- سنن البيهقي الكبرى- تأليف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي- دار النشر: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

١٨- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تأليف: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي- دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمود عمر الدمياطي.

١٩- شعب الإيمان للبيهقي - دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠- الأدب المفرد -للإمام / البخاري - دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

٢١- المعجم الكبير -الإمام الطبراني- مكتبة العلوم والحكم ١٤٠٤هـ.

٢٢- الطبقات الكبرى- ابن سعد - دار صادر بيروت.

خامساً: المعاجم اللغوية.

٢٣- لسان العرب - ابن منظور - ط - دار المعارف.

٢٤- أساس البلاغة- الإمام الزمخشري - دار الفكر.

٢٥- مختار الصحاح - الإمام الرازي- ط الحلبي.

٢٦- القاموس المحيط -الفيروز أبادي - طبعة الحلبي.

سادساً: المراجع الأخرى.

٢٧- شرح العقيدة الطحاوية – لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق الدكتور عبد الله التركي.

٢٨- عقيدة المؤمن – للشيخ / أبي بكر الجزائري – ط النور الإسلامية.

٢٩- الرسالة التدمرية – لشيخ الإسلام ابن تيمية – تحقيق/ محمد حامد الفقي صـ٦. مكتبة السنة المحمدية.

٣٠- هداية الحيارى –للإمام / ابن القيم – ط المكتبة القيمة.

٣١- إرشاد الثقات –للإمام / محمد بن علي الشوكاني – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

٣٢- العقائد الإسلامية – للشيخ / سيد سابق. ط دار الكتاب العربي.

٣٣- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – الشيخ / أبي الحسن الندوي- ط دار عمر بن الخطاب.

٣٤- دعوة الرسل – الشيخ / محمد أحمد العدوي- ط – دار المعرفة بيروت لبنان.

٣٥- الله.- للأستاذ / العقاد – ط دار المعارف.

٣٦- المنقذ من الضلال – الإمام / الغزالي – ط دار المعارف.

٣٧- إحياء علوم الدين –الإمام / الغزالي. طبعة الشعب.

٣٨- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – ابن مسكويه – طبعة صبيح.

٣٩- خُلُقْ المسلم – الشيخ / الغزالي.- ط دار الكتب الإسلامية.

٤٠- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د. أحمد غلوش – ط دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني.

٤١- أصول الدعوة، أحمد غلوش – ط. دار البيان ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

٤٢ – الأخلاق الإسلامية – الشيخ/ عبد الرحمن الميداني – ط دار القلم دمشق.

٤٣– تاريخ الدعوة – د. جمعة الخولي – ط دار الطباعة المحمدية.

٤٤ – الدين – د محمد عبدالله دراز – طبعة السعادة.

٤٥– اليوم الآخر في القرآن الكريم – الأستاذ / أحمد فائز – ط مؤسسة الرسالة.

٤٦– شرح البيجوري على الجوهرة –إبراهيم البيجوري – ط الأزهر.

٤٧– شرح المواقف، الإمام/ عضد الدين الإيجي – ط مكتبة الأزهر.

٤٨ – حجة الله البالغة – الشيخ/ الدهلوي – ط دار إحياء العلوم.

٤٩– تيسير العزيز الحميد – سليمان بن عبدالله آل الشيخ – ط. مكتبة الرياض الحديثة – الرياض.

٥٠– العقائد الإسلامية – السيد سابق – ط الكتاب العربي.

٥١– العقيدة الإسلامية وأسسها –عبد الرحمن الميداني ط دار القلم.

٥٢– – شرح الشفا – للإمام/ نور الدين القاري – مطبعة المدني.

٥٣– عقيدة المسلم – الشيخ محمد الغزالي – ط الكتب الإسلامية.

٥٤– حقائق الإسلام وأباطيل خصومه –العقاد –ط دار نهضة مصر.

٥٥– تهذيب الكمال، للإمام يوسف بن الزكي– مؤسسة الرسالة، بيروت

٥٦– مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط العدد التاسع.